عبد الكريم غلاب

في معركة المرحلة
الحرية ضرورة فكرية

تعيش الدول المتخلفة قضية اختيار بين السير في ركاب الحرية التي ناضلت من أجلها وتبنت شعاراتها وهي تجاهد لاستخلاص استقلالها ، وبين فرض حجر جديد على الفكر والعمل على السواء .

ومن المؤسف أن أغلب الذين يلون الحكم في هذه البلاد يتحمسون الى الاختيار الثاني سواء كان الحكم أتاهم عن طرق الاتباعية الاستمرارية أو أتاهم عن طريق الثورية الانقلابية . فما تحت الخط الفاصل بين الشعوب المتقدمة حضاريا وفكريا واقتصاديا والشعوب المتخلفة يضم مجموعة من الدول الحديثة التي انبثق معظمها من نضال في سبيل الاستقلال والحرية ، وانبثق بعضها نتيجة نضال الآخرين فكان استقلالها تبعا لاستقلال الآخرين . والحكم في هذه الدول سواء كان ليبراليا أو اشتراكيا ـ أو بعبارة أصح سواء كان حكما تابعا للكتلة الرأسمالية أو تابعا للكتلة الاشتراكية ـ يضيق بالحرية ويعتبر نفسه وصيا على الفكر كما يعتبر نفسه وصيا على تسيير دفة الحكم وعلى توجيه الاقتصاد وتسييره سواء بسواء .

والذين يتبعون النظام الاشتراكي في هذه الدول ـ أو يتبعون شعاراته ـ يأخذون في مقدمة ما يأخذون من هذا النظام الحجر على حرية الفكر وفرض الوصاية على المفكرين ، لان النماذج المحتذاة أمامهم في الاتحاد السوفييتي والصين وفي الكتلة الاشتراكية على العموم تفرض هذه الوصاية ولا يسير الفكر فيها الا في ظل التوجيه الحكومي سواء أرضي المفكرون أو سخطوا .

والذين يتبعون النظام الرأسمالي لا يومنون بالحرية الا للرأسمالية التي تتحكم اقتصاديا واجتماعيا لان مصالحهم مع هذه الرأسمالية ، اما بالنسبة للفكر فهم يعتبرونه ضد مصالحهم ، ولذلك فالحرية محرمة أو مقننة ، والفكر موجه أو مصادر .

وفي ظل القوانين والسلوك الذي يفرضه أولائك وهؤلاء يذوي الفكر ويموت ما عدا الفكر التقني الذي قد يخدم مصالح الدولة في ظل الرأسمالية أو الاشتراكية على السواء .

ما من شك في أن الذين ينهجون منهج الاشتراكيين في التضييق على حرية الفكر يأخذون المثل منهم ، سواء عند التقنين أو عند الممارسة والسلوك. وان الذين ينهجون منهج الليبراليين يأخذون المثل منهم وربما أيضا من بقايا الفكر الاستعماري الذي كان يحكم البلاد قبل الاستقلال . وكلاهما يلتقيان في مصادرة الحرية الفكرية . وتبقى الاشتراكية والليبرالية بلا مدلول فيما يخص حرية الفكر على أقل تقدير .

ما فلسفة أولئك وهؤلاء في الحجر على حرية الفكر ؟

أما الليبراليون فهم يعتمدون لحماية انفسهم من الرياح العاصفة وهم يعتبرون الفكر النافذة التي تعصف منها هذه الرياح . واذا كانت أغلب الدول الليبرالية المتقدمة في أوروبا وأمريكا (المثل الذي تحتذيه في المجال الاقتصادي على الاخص كثير من الدول المتخلفة) تتيح قانونيا وسلوكيا الحرية للفكر والتعبير ولا تستطيع مصادرة هذه الحرية نتيجة لتكتل المفكرين الاحرار في الدفاع عن حريتهم على الاخص ولتشبثهم بالمكاسب التي ضحى اجدادهم من أجلها فان بعضها على الأقل ما يزال يصادر حرية الفكر كلما آمن الحاكمون والاحزاب المحتكرة للحكم أنها قد تفضح النظام الذي يتبعون وقد تؤثر في الجماهير اذا استطاعت أن تخلق تيارا يعكس اتجاهات أخرى فكرية واقتصادية غير الاتجاهات التي سلكوها حتى الآن .

وعلى ذلك فالليبرالية الاقتصادية لا تتعدى المال ومصادر المال الى الفكر وما يوحيه الفكر ، وانما تمارس حرية مصادرة الحرية كلما امكنها ذلك .

أما الاشتراكيون فهم في جوهر فلسفتهم متفقون مع الليبراليين في مصادرة الحرية . لانهم يريدون حماية الظام الذي بنوه من التيارات العاصفة ، ويعتبرونها تيارات رجعية دائما حتى يضمنوا الحياة للشعار الخالد « مقاومة الرجعية » وباسم هذا الشعار يبيحون لانفسهم الوصاية على الشعب : الوصاية في التوجيه الاقتصادي لان هذا التوجيه لا تستطيعه غير الدولة ، ضرورة أن كل موارد البلاد يجب أن تكون بين يديها حتى تستطيع صبها في القنوات التي يستفيذ منها مجموع الشعب . والوصاية في التوجيه الفكري ضرورة أن الفكر هو مصدر الثورة والانقلاب والتغيير . ولحماية الشعب (وهو دائما قاصر) من الثورة المضادة والانقلاب المضاد والتغيير المضاد يجب السيطرة على الفكر في مصادره وموارده بحيث لا يتلقى الا ما تبيحه الدولة من كتب ومحاضرات وأخبار وشرطة وموسيقى ولوحات فنية ، ولا يصدر من كتب ومقالات ولوحات وموسيقى وأشرطة الا ما تبيحه الدولة كذلك .

وأجهزة الدولة التي تبيح ولا تبيح تخضع لمفاهيم لا نكون مبالغين اذا قلنا أنها لا تمت للفكر بصلة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعلى ذلك فالاشتراكيون (لا نقول الاشتراكية) والشروعيون يمارسون حريتهم في مصادرة حرية الفكر باسم المحافظة على سلامة الشعب الذي هو موضع وصايتهم . ويلتقون مع الليبراليين في هذا التوجيه . ولكنهم يزيدون عليهم في أن الاشتراكيين يجعلون الفكر أيضا في خدمة الدولة كالاقتصاد سواء بسواء . ويجعلون من المفكرين دوابب تدور في عجلة الدولة كالموظفين والعمال سواء بسواء . ولذلك فالاتجاه السائد هو أن يكون الادب، والقصة والشعر والمقالة والبحث ، وتكون الفلسفة والفكر جميعا في خدمة المذهب الذي تدين به الدولة ، لا خدمة الرأي فحسب، ولكن خدمة السلوك والممارسة ، أو على الأصح لا خدمة الاشتراكية كفكرة ومذهب ولكن خدمة الاشتراكيين الحاكمين كممارسة وسلوك .

الاشتراكية العلمية ، أو قل الشروعية ، تعتمد على المجتمع (والدولة هي ممثلة المجتمع أو روحه) أما الفرد فهو منسحق أمام مصلحة الدولة هو في خدمتها اقتصاديا واجتماعا ، ويجب أن يكون في خدمتها فكريا . و ذا كان

الفكر لا ينمو في غير ظلال الحرية فان الدولة التي تمنح الخبز للجميع لكي يعيش وتمنح العمل للعامل لكي ينتج ، وهي تمنح العمل والخبز بالقدر الذي يسمح به نظامها «تمنح» كذلك الحرية للمفكر لكي يفكر لها وفي ظلال النظام الذي تضعه وبالقدر الذي يبيحه النظام والمصلحة العليا للمجتمع الذي هو الدولة .

وهكذا ينسحق الفكر الفردي أمام ما يسميه القائمون على الحكم المصلحة الجماعية ويسير وراء التخطيط الذي يضعه المخططون في الدولة ، ويصبح المفكر كالعامل عليه ان يدير الدولاب وليس له أن يبتكر الدولاب .

ماذا اصاب الفكر من هذه الانتكاسة التي عرقلت سيره سواء في العالم الليبرالي أو العالم الاشتراكي ؟

لا نريد أن نعدد مظاهر النكسة التي عرقلت نموه ، ولكنا فقط نريد أن نشير الى المؤامرة الصامتة على حرية الفكر في الولايات المتحدة مثلا ، التي تجعل من الادباء والمفكرين خدمة للرأسمالية الجامحة . وان كنا نلاحظ ان الادباء والمفكرين في أوروبا الغربية يتشبثون بالمكاسب الفكرية وفي مقدمتها الحرية ، ويحمون قوانين الحرية أكثر مما تحميهم ويدافعون عنها أكثر مما تدافع عنهم . وهم لذلك يأبون أن ينسحقوا في ظل الرأسمالية الاقتصادية والاجتماعية . ولذلك كانوا أكبر مدافع عن الحرية الفكرية في العصر الحديث دفاع رأي وممارسة معا .

وعلى ذلك فالفكر والادب اذا كان يبدو متخلفا عن المستوى الذي بلغته التقنية والمستوى المعاشي والاجتماعي والاقتصادي في أمريكا فهو في أوروبا الغربية يساير هذا المستوى ، بل هو يفوقه وما يزال يحتفظ بدور الزيادة والقيادة نتيجة الحرية التي يتمتع بها .

أما في الدول الاشتراكية فكلنا يلحظ مثلا التخلف الذي مني به الفكر في الاتحاد السوفيتي فلم يظهر منذ ثورة أكتوبر مفكر كلينين ولا أديب كتولستوي وماكسيم كوركي . وكلنا يلحظ الادباء والمفكرين الذين طردوا من رحمة الدولة ، أو حوكموا على عهد الستالينية ، التي استمرت ظلالها القاتمة على

عـهد خروتشوف . وما قصة باسترناك والشعراء الذين حوكموا بعده عـنا ببعيـدة . ثم ان نظرة عاجلة في الانتاج الفكري والادبي والفنـي في العصر الستاليني والخروتشوفي تعطينا فكرة عن ضحالة هذا الانتاج وعدم مسايرته للتطور الاقتصادي والتقني والاجتماعي في الاتحاد السوفييتي ، بل والانفصام عن سير التطور الذي كان عليه الادب والفكر والفن قبل الثورة . فمما لا شك فيـه أن المفكرين والفنانين والادباء كانوا يناضلون في سبيل الحرية الفكرية ويقتسرونها رقم الحكم القيصري الطاغي الذي ما كان يتطاول لينال من هذه الحرية أو على الاصح ما كان يقوى على ذلك .

ونحن في الوطن العربي نجتاز مرحلة الاتباعية في الوقت الذي نجتاز فيـه مرحلة التجربة الخطيرة التي تكاد تغير مستقبلنا وتنشر عليه ظـلالا مظلمة قاتمة الظلمة . نحن امام الخطر الصهيوني والاستعمار الجديد غيـر مستعدين علميا وعسكريا واقتصاديا واجتماعيا ونفسيا لمواجهتهما . ولذلك فنحن نواجه مرحلة خطيرة تفوق في خطورتها المرحلة التي اجتزناها في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن . ونحن غير مستعدين لمواجهتها في الـوقت الذي لا ترحمنا ولا تترك لنا الفرصة حتى يقوى ساعدنا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وامام هذه المرحلة الحرجة لا نجد انفسنا متحدين عقائديا ومذهبيا . بل ان الاتباعية هي شعار تفكير المسؤولين في هذا العالم العربي المضطرب. وهي اتباعية متضاربة غير واعية تبلغ أحيانا حد الارتباط والسير في ذلـك الغير . واذا كان نصف المسؤولين في هذا العالم يتجه غربا فان النصـف الآخر يتجه شرقا حتى أصبحت المنطقة مكان صراع بـين الغـرب والشرق ومحط حرب باردة بين الكتلتين . ولعله مما زاد في تعقيد المشكلة التـي يواجهها هذا التنافس الدولي – الذي أخذ طابع التنافس المذهبي والعائدي – في منطقة الوطن العـربي .

وهذه الاتباعية لم تفرض المذهبية الاقتصادية والاجتماعية فحسب ، ولكنها تفرض كذلك السلوك العملي في تسيير الحكم وفي مواجهة المواطنين . واذا لم يلتق الاتباعيون هنا وهناك في كثير من الاشياء فقد التقوا في نظرتهم الـى الشعوب نظرة الوصاية الناتجة عن عدم الوعي . فالشعوب عند الليبراليين والاشتراكيين العرب مسيرة غير مخيرة قاصرة غير راشدة ولا ناضجة . ولذلك

يجب أن توجه لا اقتصاديا أو مذهبيا فحسب ، ولكن فكريا كذلك . ومن أجل ذلك يجب أن تحجب عنها الحرية التي كانت ، فيما يحسب هؤلاء وأولائك ، سببا في كثير من التخلف . فالفترة التي عاشتها بعض البلاد العربية قبيل الحرب الاخيرة تتمتع بحرية نسبية يحميها نظام ديمقراطي شكلي هي التي سببت النكسة والتخلف وعدم الجدوى . ولذلك يجب مصادرة هذه الحرية حتى لاينطلق الشعب في طريق الفوضى والانحراف كما يزعم الليبراليون ، وحتى لا ترفع الرجعية رأسها فتحطم الانطلاقة الاشتراكية كما يزعم الاشتراكيون .

وهكذا لم يفرض الحجر على ديمقراطية الحكم التي تتطلب اختيار الشعب لحاكميه فحسب ، ولم تفرض على الصحافة السياسية ، ولا على التحركات الشعبية فحسب ، ولكنها فرضت كذلك على الميدان الفكري الصرف فأصبح الكاتب الاديب والمفكر يعيش في ظل رقابة خطيرة تضعه في لحظة اختيار : اما أن ينعزل ، أو ينصرف الى ميدان فكري بعيد عن اهتمامات الجماهير وعن المساهمة في المعركة التي تفرضها المرحلة ، أو يندمج في التيار ليتبنى المرحلة بكل أخطائها وانحرافها وفسادها ، وبذلك لا يكون الا صدى للحاكمين والمسيرين ، وليس له من ميزة رجل فكر الا أن اجهزة الدولة تصنفه من بين هؤلاء .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهكذا اختفى الفكر من الميدان أو كاد وأصبحت معالجة المرحلة في الادب والبحث الفكري والاجتماعي والاقتصادي لا تعدو أن تكون معالجة سطحية تعتمد على الخطابة تارة وعلى الاتباعية النظرية تارة وعلى تبني الشعارات وحشدها في المقال أو القصة أو البحث أو القصيدة دون النفاذ الى مضمون له وزن .

لانتاج أن نستدل على ذلك عند الليبراليين الذين ساروا في اتجاه الحاكمين فتلك قضية لا تحتاج الى دليل ، ولكنها عند الاشتراكيين والثوريين قضية في حاجة الى استشهاد ، ثم هي في حاجة الى دليل . وهذا احد الكتاب الاشتراكيين الثوريين (نديم البيطار) يقول في كتابه «من النكسة الى الثورة» : «الفكر العربي الثوري هو فكر يعتمد العبارات المنمقة والتخريجات اللفظية والكلمات الطنانة والشعارات ، وليس وقائع الاجتماع وظواهر التاريخ والقوانين التي تسودها . وهو اذا كان واقعيا موضوعيا فهو يقتصر

على تحديد وقائع منفصلة أو مفاهيم جزئية ، ويمتد في أحسن حالاته الى بعض نواحي الكل الاجتماعي فقط ، دون أن يحاول أن يكشف عن القوانين والاتجاهات التي تسود هذا الكل ككل ، فهو اساسيا فكر تبشيري ، يعبر عن نوازع نفسية ، عن آمال وأشواق دون أن يرتبط بالتاريخ وقوانينه . انه بكلمة أخرى ليس فكرا ثوريا ، أو هو فكر ثوري غير متكامل ولا ناضج» .

ويقول البطار في كتاب آخر له «الفعالية الثورية في النكبة» : « ان المفكرين العرب لم يحققوا لانفسهم هذا الدور بعد ولم يرتفعوا الى مستوى النكبة ، ونتاج ما بعد النكبة الفكري يعلن بوضوح عن الفقر الثوري المخجل الذي ينطوي عليه» .

وقد تنبه أحد الذين علقوا على نظريات البطار هذه الى أسباب هذا العجز الفكري فقال : « انه لا يوافق البطار على أن العجز الثوري ناتج عن العجز الفكري لأننا نعتقد أن الرؤية الثورية موجودة لدينا ، وقد طرحت بشكل أو بآخر منذ نهاية القرن التاسع عشر ، والآن ما كنا نفتقر اليه وما **نزال هو النضال الدائم ، احتراف الموت في سبيل الثورة** » .

من سوء الحظ أن كثيرا من الباحثين المفكرين الذين يمارسون التفكير الايديولوجي دون أن يمارسوا العمل الفكري والادبي يغضون الطرف عن السبب الجوهري في هذا العجز الفكري وهو مصادرة الحرية . ولكن أديبا مفكرا ، ممارسا للعمل الفكري والادبي ، واجه الاختيار الصعب المطروح على كل أديب وكل مفكر ، ووجد نفسه أمام امتحان عسير . واذا كان يهرب للرمز ولتغليف أفكاره بضبابية لم يعد يقبلها العصر المتطلع الى الوضوح والحرية ، فانه لا يلبث أن يعلن بوضوح رأيه في انعدام الحرية. **هذا الاديب** هو نجيب محفوظ الذي جرب الانعزال أمام مصادرة الحرية وانزوى في ركن من شركة لبيع الاخشاب ، ولكنه تمرد على هذا الانعزال بعض الشيء فأخذ يكتب الروايات والقصص الرمزية التي يعالج فيها الاوضاع ـ بعض الاوضاع ـ وقد اعلن أخيرا رأيه في حديث صريح لمجلة (مواقف) قال فيه : « حتى الآن ينقسم العالم الى قسمين : قسم يعطي الانسان الحرية ويتركه في غابة ، وقسم يعطيه العدالة ويسلبه الحرية . وفي الحالتين يدفع الانسان الثمن غاليا . **أظن لو أن العدالة اجتمعت مع الحرية في نظام واحد تكون**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المنقذ . الاشتراكية بمعنى آخر شيء مهم جدا ، انما ينقصها شيء خطير هو الحرية . الليبرالية أو الديمقراطية القديمة أتت بقيمة حقيقة كبيرة هي احترام الانسان والحرية ، لكنها قصرتها على طبقة معينة . **المطلوب أن تكون الحرية ملكا مشاعا كقوى الانتاج في البلدان الشيوعية . وما دام الانسان يفتقد احدى الحالتين فلن يرتاح له بال . سيبقى تعسا في بلد شيوعي ، وأكثر تعاسة في بلد رأسمالي » .**

ويضيف قائلا : « **أنا رجل أقول عن نفسي أنني اشتراكي ، انما أرى أن الاشتراكية تفتقد قيمة كبيرة لانها تستهتر بالحرية » .**

وتقول عن مصادرة كتابه « أولاد جارتنا » في مصر : نعم صودر ... فقد اعتبروه كفرا دينيا ... و ... و ... لست أعرف ... **وكان شعوري طبعا الاسف الشديد لان يصادر الفكر بهذه الطريقة ... لماذا الخوف ... ؟ وما الداعي اليه ... ؟ » .**

هذه العبارات المختصرة التي صدرت عن رجل قلما يتكلم ويعتبر نفسه موظفا يحمي نفسه بعمله ، هذه العبارات مليئة بالمرارة عن الحرية التي تنقص الانظمة التي تعتبر نفسها تقدمية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والخلاصة التي نستطيع أن نستخلصها ان المرحلة التي يعيشها عالمنا المتخلف ، وبالاخص العالم العربي ، تنقصها الحرية مهما يكن النظام الذي يسلكه الحكم ، وكلها انظمة اتباعية كما رأينا . والحرية التي تنقص هذا العالم ليست شيئا ثانويا يمكنه أن يستكمل أساسه بدونها ولكنها شيء جوهري أساسي لا تطور للفكر ولا للادب بدونها .

وقد كان لمصادرة الحرية أثرها في سير الفكر عموما وفي سير الادب على الخصوص . ويمكن أن نقول : أن الفكر العربي أنكمش في العقدين الآخرين ومنذ نهاية الحرب الثانية على الاخص ، رغم التطور الذي حدث في التعليم وفي الاتصال بالعالم الخارجي وفي تلاقح الافكار نتيجة للتطور العالمي . ومن أجل ذلك لا نكاد نجد الا أمثلة قليلة من الدراسات الفكرية المتحررة التي تعالج المجتمع العربي أو جزءا من هذا المجتمع . واذا استثنينا كتبا ، في مقدمتها

«النقد الذاتي» للرئيس علال الفاسي الذي كتب منذ نحو عشرين سنة وفي ظروف كنا نتنسر فيها الحرية اقتسارا ، وهو كتاب عالج فيه الرئيس علال المجتمع المغربي بنقد ذاتي ووضع الفلسفة الجديدة لبناء كيان هذا المجتمع بفكره المتحرر . وفي مقدمتها كذلك كتاب « الايديولوجية العربية المعاصرة » للاستاذ عبد الله العروي ، ومن حسن لحظ انهما معا من المغرب ، اذا استثنينا أمثال هذه الكتب المتحررة من التبعية الفكرية والتي بلغت فيها حرية الفكر حد الاجتهاد لا نكاد نجد الا كتبا تجتر افكار هؤلاء وأولئك لتقدمها كنماذج للتفكير العربي الذي يعالج المرحلة التي يعيشها عالمنا .

وما من شك في أن الحرية المغتصبة في هذا النتاج تضافر عليها اغتصاب الحكم واغتصاب المفكرين والكتاب أنفسهم . فالتخلي عن الحرية لصالح الاتباعية الفكرية ـ ولو عن طواعية ـ انما هو اغتصاب للحرية مهما زعم المتخلون أنهم متحررون وثوريون وتقدميون ، ومهما زعم الآخرون أنهم متمسكون بالتراث ومحتفظون بالقيم .

ومثل ذلك حدث في الادب الذي لا نعدم فيه انتفاضات ولمحات ثورية من حين لآخر على الوضع الذي ترسى فيه المجتمع العربي . فمعظم الذين يعالجون مثلا الانكبات والنكسات التي أصيب بها هذا المجتمع سواء من الادباء أو المفكرين ـ ونكبة خامس يونيو انما هي مثل لها وقد لا يكون افظع مثال ـ انما يغمضون أعينهم على حقيقة الاوضاع فيتجهون جانبيا ليعلنوا ثورتهم الدونكيشوطية . وهذه الثورة المصطنعة المغاطة انما هي تنفيس عن انهزام الحرية في نفوسهم سواء الانهزام الذاتي أو الانهزام الذي يأتي من خارج ذواتهم أي من انظمة الحكم . وهم جميعا يتجهون الى المجتمع أو الى فئة من المجتمع دون أن يصنفوا أنفسهم في هذه الفئة . وكمثال على ذلك نأخذ قصائد نزار قباني العكاظية التي قالها بعد النكبة ـ وقد اختار لها الاسواق لتكون عكاظية ـ هي مثال لهذا التنفيس ومحاولة التسلق على انقاض الشعراء الآخرين ، كأنه لم يكن منهم ولم يكن شاعر الكاس والمرأة طول العشرين سنة الماضية . ان الحرية التي انتقصها ـ وهو مثال للشعراء ـ من نفسه وانتقصتها منه أنظمة الحكم الموجودة في البلاد العربية هي المسؤولة عن ضحالة تبلور المرحلة في الادب العربي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما هي بعد هذا وقبل هذا ـ الحرية التي نريدها للادب والفكر ؟

اننا لا نريد حرية محدودة تتصدق بها علينا انظمة الحكم ليكون الادب والفكر بوقا يعكس حتى الانهزامات ليصدرها في صورة انتصارات .

ولا نريد حرية مقيدة في دائرة المذهب والحزب والدولة لتعكس رأي هذه أو ذاك كانما المذهب أو الدولة أو الحزب هي الفكر الذي نمتد منه الرأي ونستقي منه الفكرة ونأخذ منه حتى الصورة والنموذج والاطار الذي نعبر به في الادب .

ولا نريدها حرية مرعوبة تخشى على الفكر أن تفتح نوافذه على آفاق الشرق والغرب فتقفل هذه النوافذ باسم المحافظة على التقاليد أو باسم المحافظة على الثورة ، خوفا من الرجعية أو خوفا من التقدمية .

ولا نريدها حرية موجهة لا يباح منها الا ما يساهم في خدمة «الرسالة» التي يتحمل الحاكمون القيام بها .

ولا نريدها حرية مصنفة تبيح رأيا وتفرض الحجر على آخر ، حتى لو فرض هذا التصنيف المفكرون والادباء أنفسهم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وانما نريدها حرية مطلقة تستمد وجودها من المفهوم الحقيقي للحرية الذي ناضل من أجله الفكر منذ شعر الانسان بالحاجة الى الحرية .

نريدها ديمقراطية يمارسها المفكرون والادباء بكل وعيهم الناضج الرائد، ويقومون في ظلها برسالتهم الفكرية والادبية التي هي رسالة الخلق والابداع والتوجيه ومعانقة اهتمامات الانسان العربي ومشاكل المجتمع العربي .

المفكرون والادباء رائدون في بلادهم ومجتمعهم . وهم لذلك لا يمكن أن يعزلوا عن القيام بريادتهم . وفكرهم وأدبهم لا يمكن أن ينمو في غير ظلال الحرية . وكل انكتام لجو الحرية لا يضر بالحرية التي هي قيمة انسانية في حد ذاتها فحسب ، ولكنه يضر بالفكر والادب نفسه فيعوقه عن الغمر والانطلاق ، ويضر بالمجتمع فيشده الى وثاق التخلف الفكري والادبي ويتركه رهينة لجمود أمام اخطاء الحاكمين والمتصرفين في مصيره .

وبذلك ، صح أن نقول ان الحرية ضرورة حياتية ومجتمعية ، وبخاصة في المرحلة التي يعيشها مجتمعنا .

وأعتقد أن الحرية لا يمكن أن تنمو وأن تضمن نموها في غير نظام ديمقراطي غير مفروض ينبع من الشعب ، وتساهم في وضعه ورعايته الطبقة الواعية المفكرة التي يجب أن تتحمل مسؤولياتها في صيانته والدفاع عنه . وكما نريدها ديمقراطية واعية هادفة تحقق الخبز والعدالة للجميع نريدها كذلك ديمقراطية متفتحة غير مرعوبة تبيح الحرية للجميع .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مُحَمَّدْ الْخَمَّارْ

قَصِيـــــدَةٌ

مِنْ أَيْنَ ؟ هَا هُنَا مَدَارُ الْمَوْتِ وَالْحُزْنْ
بَيْنَ خُطَى أقْدَامِنَا وَالْعَجَلِ الْمُسْرِعِ ، يَحْيَا!
بَيْـــنَ الـرِّمَـــالِ وَالْحَجَـــرْ
يَنْمُـــو وَيَنْهَـــضُ الشَّجَـــرْ
إِنَّـا عَبَرْنَا أَمْسِ مَا رَأَيْنَا شَيَّا
مَنْ قَالَ: (قُمْ)، مَنْ مَرَّ مِنْ هُنَا
يَا صَحْوَةَ الْعَدَمِ فِي هَذَا الْمَدَارْ ؟

* *

قُبَيْلَ أَنْ نَطِلَّـــا
ـ يَاظِلَّ هَذَا الشَّجَرِ الْيَخْضَرُّ ـ مِنْ قَيْظِ ـ
الطَّرِيقِ ، قُلْ لَنَـــا
مَا السِّرُّ ؟
قَدْ يَنْفَعُنَا فِي مَوْتِنَا نَحْنُ الَّذِينَ مُتْنَا .

* *

نَحْنُ عَبَرْنَا أَمْسِ مَا رَأَيْنَا شَيَّا
وَلَا سَمِعْنَا (قُمْ) تُعِيدُ الْمَيْتَ حَيَّا
نِمْنَا ، وَهَلْ تَفَتَّحُ السَّمَاءُ
فِي هَذَا السَّبِيلِ غَيْرَ مَرَّةٍ ؟ فَنِمْنَا يَاسُهُوبِـــي

نَفْتَحُ وَهْنًا نِصْفَ عَيْنٍ وَنَقُولُ: هَلْ وَصَلْنَا؟
يَشْغَلُنَا الحِوارُ، لَحْمُ المَيِّتِينَ، عَنْ رُؤَى الأَشْيَاءْ

ـ ضِقْنَا هُنَا، فَافْتَحْ مَنَافِذَ الْهَوَاءْ
وَمُدَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّيحْ
يَداً تُعَرِّي سُجُفَ الأَنْوَاءْ
يَعُدْ إِلَيْنَا عِنْدَ بَابِ الْقَفْرِ يَوْماً أَلَقُ الأَحْيَاءْ
ـ بَلْ سُدَّهَا هَذِي مَدَارِجُ الْغُبَارْ
أَقْصَى مِنَ الضَّيْقِ عَلَيْنَا ـ أَلضَّيْقُ وَالسَّعَةُ ـ فِي الْقَلْبْ ـ
مِنَ الشُّحُوبِ وَالدُّوَارْ
فَخَلِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا سِتَارْ
ـ لَوْ تَضَعُونَ الْبَحْرَ فِي يَمِينِي
وَفِي يَسَارِي وَهَجَ الصَّحْرَاءْ
فَلَنْ تَعُودَ بِي إِلَيْكُمُ عُيُونِي

* * *

يَحْيَا فَيُحْيِي فِي الرُّؤَى دِفْءَ الْبَقَاءْ
وَيُشْعِلُ الأَنْفُسَ فِي رَمْلِ عَمَاهَا بِالضِّيَاءْ
حَتَّى تَصِيحَ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ: هَذَا الْوَمْضُ ـ وَمْضِي
وَيُوهِمُ الأَعْيُنَ فِي قَفْرِ السَّبِيلِ بِالرُّوَاءْ
حَتَّى تَقُولَ عِنْدَ بَابِ الْقَفْرِ: هَذَا الْبَعْثُ بَعْثِي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أَمَّا عُيُونُنَا فَتَبْكِي
شَوَائِمٌ قَدْ رَمَقَتْ وَمِيضَا
بَادَتْ وَمَا لَهَا بِهِ نَصِيبُ
نَحْنُ غَدَوْنَا فِي عُيُونِ الرِّيحِ مِلْحًا وَحَجَرْ
جَفَّتْ مَوَاعِيدُ الْخُرُوجِ وَالسَّفَرْ
نَسْمَعُ وَقْعَ الزَّمَنِ الْهَارِبِ مِنَّا
صَوْتًا يَصِيحُ فَوْقَنَا : شِيخُوا فَشِخْنَا
نَبْضَ الدِّمَاءِ فِي الْعُرُوقِ الْأُخْرَى
وَمَوْتُنَا الْقَدِيمُ عَادَ فَنَزِيدُ مَوْتَا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عبد الله العروي

المضمون القومي للثقافة

1 ـ اذا اتخذنا العنوان كمنطلق للتحليل نجد أنه يحمل المعنى التالي : هناك ثقافة عامة وهناك قوميات مختلفة . وكل قومية تضمن هذه الثقافة معنى خاصا .. تكون الثقافة حسب هذا الفهم صورة أو شكلا .. لا تفرض على من يتقبلها مفهوما مسبقا .

اذا تتبعنا التحليل على هذا المنهج نرى أن الثقافة هي كل مظاهر التعبير الانساني ، وكل عمل يعود تعبيرا . لا الأدب والفن وحدهما ، بل كذلك الديانات أو المثولوجيات (أي الأساطير بطقوسها والاهياتها ، بعباداتها ومعتقداتها ؛ وكذلك الأخلاق (أي الآداب القومية) ومظاهر الحياة الاجتماعية من لباس وتزيين وكيفية الطبخ والأكل .. الخ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأعمال الانسانية كلها، أعمال الفكر، وأعمال القلب وأعمال الجوارح .. يمكن اعتبارها تعابير ورموزا وآيات ..

هذا هو المفهوم الامريكي للثقافة ، الذي تغلب على المفاهيم في ميدان علم الاجتماع .. كل ما يسمى باجتماعيات الثقافة اليوم يعتمد على هذا المفهوم ..

والمدرسة الثقافية الامريكية لها تاريخ ، تكونت تحت تأثيرات عدة ، منها :

ـ الفلسفة الالمانية التي اعطت لكلمة «كلتور» مغزى مخالفا لكلمة حضارة ..

ـ الاثنلوجية أو علم المجتمعات البدائية ، التي نشأت وتقدمت بسرعة مدهشة في بداية القرن العشرين .

ـ المدرسة التحليلية في علم النفس التي ابتدعها (س) فرويد ..

هذه المذاهب والمناهج ترتكز على منطق خاص ، وهو منطق «الرمز والتعبير» ، الذي ينجم عنه التأويل كطريقة للبحث والتحليل ..

وهذا المنطق ينطلق من مبدأ ، هو أن كل ظاهرة انسانية كيف ما كان نوعها (كلمة منطوقة أو مكتوبة ، عمل جسماني ، فردي أو جماعي) انما هي علامة على حقيقة باطنية ، آية يمكن ويجب تأويلها ..

ونصل هكذا الى النتيجة : ان الثقافة هي مجموع التعابير (عن) وفي المجتمع الانساني ..

هذا التحديد هو تحديد صوري ، أو شلكي ، لأنه يقول : آية ظاهرة في مجتمع انساني هي عنصر من عناصر الثقافة الانسانية ، لكن لا يعطينا مضمونا و هدفا للثقافة .

تترتب عن هذا التحديد الشكلي ثلاث نتائج :

أ ـ لا توجد مجموعة انسانية ليست لها ثقافة وان صغرت ما ضغرت، وان ظهرت للغير في أقصى التأخر .

ب ـ لا فرق ولا تمييز من ناحية القيمة في ذلك بين جماعة الاسكيمو ، أو سكان جزر ميلانزيا والشعب الامريكي مثلا (هذا ما نراه مكررا عند كاتبة كخارجرت ميد) .

ت ـ السؤال الذي طرحنا وهو «المضمون القومي للثقافة» لم يبق فيه اشكال ، لم يعد مشكلة وانما يصبح من البديهيات ، من المسلمات ، مادامت كل ثقافة انما هي مجموع التعابير في مجتمع معين فاذا بالضرورة كل مجموعة انسانية ، أكانت قومية أو ادنى من مستوى القومية ، تعبر (ولا يمكن الا تعبر) عن كنهها .

واذا كان هناك مشكل ، فليس السؤال الذي طرحنا ، وانما السؤال الآتي : هل تستعمل كافة الجماعات الانسانية نفس الوسائل التعبيرية أم لا ؟ ويجب هنا الباحث الاثنلوجي ، لا يمكن الجواب عن هذا السؤال الا بعد دراسة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جميع الجماعات الانسانية ، كيف ما كان نوعها ، لذلك يروح يبحث عن أصغر القبائل الهندية في أمريكا اللاتينية أو في افريقيا .

وتصبح الثقافة الانسانية هي مجموع الوسائل ، الفكرية والنفسانية والعملية التي تستعملها المجموعات الانسانية المختلفة للتعبير عن كنهها ، و سرها ، أو نظرتها في الحياة والكون .

ويعود علم الثقافة علما شكليا ، يستعمل المنطق الصوري ، أي لا يطرح أبدا قضية الهدف .. اذا سألت : علام تعبر هذه الاشكال المختلفة التي يدرسها الاثنلوجيون ؟ ، فيجيب هؤلاء : المجموعات الانسانية تعبر عن نفسها ، وكفى.

هذه النظرية ، كما قلت ، هي المتغلبة اليوم في هذا الميدان . واذا أردنا أن نلخص مبادئها الاساسية لكي نتمكن من ابداء رأينا فيها ، نقول أنها :

1) تنفي وجود مضمون متعال للثقافة ، (المضمون والتعبير عندها شيء واحـــد) .

2) تنفي وجود تفوق ثقافة على ثقافة أخرى ، كل الثقافات متساوية .

3) تنفي وجود تمييز بين مستويات التعبير المختلفة (بين الادب المكتوب وخرفات العجـائز مثلا) وبذلك لا تنسب دورا خاصا للمثقف ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونرى بكل سهولة ما في هذه النظرية من جاذبية ، خاصة لابناء الثقافات غـير العلمية ، أو غير الكتابية ، وغيـر الصناعية .

الآن اذا رأينا واقعنا على ضوء هذه النظرية ، يتبخر سؤالنا الى بديهيات.

المجموعة المغربية (التي يمكن أن تتميز الى جماعات محلية ، أن هذه النظرية على اي حال لا تعطي للقومية منزلة خاصة بين التجمعات الانسانيـة المختلفة) تعبر عن نفسها بوسائل متعددة منها :

ـ الطقـوس الـدينيـة .

ـ الفن : موسيقي ، نحت وتصـور في جمـيع أشكاله : بناء الـدور، الزرابـي ، التـطريز .

ـ العادات : آداب الطعام ، العلائق العائلية ، تربية الاطفال .

اذا اهتممنا بهذه المظاهر كلها ، سنجد أنها تشد بعضها بعضا . انها متلازمة ، وفي هذا التلازم يكمن سر المجتمع المغربي .

ونلاحظ .. ان التعابير هنا كلها متساوية ، اي لا فضل للكاتب أو الشاعر ، على الممثل المسرحي أو القصاص الشعبي ، لا فضل للناحت على مزين الخزف أو على ناسجة الزرابي ، لا فضل للمهندس المعماري على راقصة احواش ، كل هؤلاء يعبرون عن الثقافة المغربية .

ونلاحظ كذلك أنه يتساوى ، في هذه النظرة الباحث الانثروجي الاجنبي، والمعبر الباحث عن الأصالة الثقافية ، لان كلاهما يلجأ الى طريقة التأويل (أي روح المغرب أو سره في الوان الزرابي التقليدية أو حركات راقصة احواش .

لعلكم فهمتم الى من أومىء .. فكثير من الناس بيننا يدافعون على مثل هذه النظرية بدون وعي منهم في مواضيع جزئية ، تنصار التجديد الثقافي عن طريق الفنون الشعبية ، ليتهم كانوا يمعنون النظر في المرض ليتيقنوا من أصل منهج تفكيرهم ..

ولعلكم كذلك فهمتم منذ البداية أنني لا أوافق على هذا النوع من التحليل. هاكم رأيي فيه :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان هذا التفكير يدعي أنه طريقة علمية للبحث ، ويدرس كمنهج علمي في مئات المعاهد ، في مادة اجتماعيات الثقافة ، لكني أرى فيه فلسفة ، أي نظرة خاصة للمجتمع الانساني ، وككل الفلسفات ، فهي ناتجة عن ظروف لا بد من التنبيه اليها .

بدأت هذه النظرية تنمو وتنتشر في أواخر القرن 19 في أوربا واكتملت في أمريكا في بداية قرننا هذا ، الى أن عمت دنيا الفكر فيما بين الحربين العالميتين ..

ظهرت في جو قلق ، قد فقد فيه المثقفون ثقتهم في الثقافة الاوربية ، فراحوا يبحثون عن أسرار الثقافات الاخرى . بدون اعلان ، ولا احساس أحيانا ، بأي تفوق فكري ، لكن :

نفيهم لمضمون الثقافة وجعلهم اياها مجموعة وسائل تعبيرية يعكس انسلاخ الثقافة الاروبية المعاصرة عن مضمونها الأصلي (أي مضمون عهود الاصلاح في أوربا من القرن 16 الى 18) .

ـ نفيهم أولوية المثقف تعكس وضع المثقف في أروبا بعد أواسط القرن 19 .

ـ نفيهم أسبقية الوعي على اللاوعي ، والمكتوب على غير المكتوب يعكس تشاؤم الاروبيين قبيل الحرب العالمية الاولى وخيبتهم في ميدان الفكر والاخلاق ..

بحيث النظرية بمجموعها انعكاس لحالة أوربية (مؤقتة أو دائمة لا ندري) ولا يمكن بذلك اعطاؤها صبغة العلمية الموضوعية .

اكثر من ذلك ، أن منطق «الرمز والتعبير» يستلزم معبراً ، وهذا المعبر (على أية حال) خارج الثقافة التي يدرسها ، يحق لنا أن نتساءل : أين هو ؟ أنه يرى المجتمع الذي يؤول مظاهره الثقافية من شرفة ، أين هذه الشرفة ؟ طبعا هي الثقافة الاروبية . بحيث يمكن القول أن هذه النظرية في هدفها وفي منهجها ، تمثل استمرار انتسام العالم الى شطرين : شطر يرى ويعبر عما يرى ؛ وشطر يرى ويعبر عنه ، رغم كل ما يزعم الاثنولوجيون واجتماعيو الثقافة وبعض الفلاسفة ، فهذه النظرة لا توحد المجموعة البشرية بل تحافظ على تغايرها ، كل من يعطي للثقافة تعريفا شكليا ، لا مضمونيا (مدلوليا) (لا مضمون للثقافة غير التعبير نفسه) . يقسم في آخر المطاف العالم الثقافي الى عالمين : عالم الثقافة الحقيقية ، وعالم الفلكلور أي كما عرفته الثقافة التي تحتاج الى تأويل ، مغازيها ، وجمالياتها .. وهذه الفكرة ليست وقفا على الغربيين ، (الموسيقى الذي يذهب الى الشرق ليستوحى منه الحانا جديدة ، والسينمائي الذي يؤم الهند لتجديد صناعته) بل توجد عند كثير من شبابنا الذي يقول : الثقافة القومية هي الثقافة الشعبية ، فهؤلاء لا يدرون أنهم يجارون الغير بدون ما شعور .

2 ـ هناك اتجاه آخر هو أيضا يبسط المشكل الذي طرحناه وآخر الامر ينفيه . وهو الذي يحدد الثقافة كالآتي : الثقافة هي التعبير الواعي عن

واقع مجتمع معين بأسلوب ولغة من خصائص هذا المجتمع اذا توفرت هذه الشروط تنتج ثقافة قومية ..

نقول فيما يتعلق بنا شروط الثقافة المغربية : الوعي أو الهدف أو كما يقال الالتزام ، لغة عربية مبسطة لكي يفهمها الجميع ومضمون مستوحى من الواقع المغربي .

نلاحظ قبل كل شيء أن هذه النظرية تعطى أسبقية لعنصر الوعي ، وبذلك تفصل المعقول عن اللا معقول والمكتوب عن المروي ، وتعترف للمثقف بتأثير خاص في المجتمع ، بحيث تنحصر الثقافة في ميدان التعبير الواعي ولا تدخل العناصر التلقائية في نطاق الثقافة الا اذا اتخذت كمادة للتعبير الواعي.

هذه النظرة تبدو وكأنها الجواب الصحيح لمسألتنا لانها واضحة ، بديهية . رغم ذلك اذا أمعنا فيها النظر نجد أن سهولتها خداعة وانها بالعكس تزيد مشاكل جديدة على المشكل الاصلي .

لنأخذ ثلاث نقط ونناقش بسرعة الواحدة بعد الاخرى .

أ ـ هذه النظرية ترى أن للثقافة هدفا ومضمونا .. فيقول البعض ، هذا المضمون هو الاسلام بما أن ثقافتنا اسلامية ، وحالا يبرز التناقض لان الاسلام كمعتقد وكتنظيم اجتماعي وكنفسانية ، له مغزى عام لا يمكن بحال أن يعبر عن قومية ، الا اذا قلنا أن القومية الاسلامية هي القومية الحقيقية ، رغم ذلك لا يمكن للمضمون الديني في عموميته أن يمثل أكثر من جانب واحد بين جوانب الشخصية القومية . التناقض الحقيقي هو ضرورة الاختيار بين جعل الوحدة القومية في الوحدة الاسلامية ، من جاوة الى المحيط ؛ وهذا لا يكون الا على مستوى الاعتقاد المجرد . وفي هذا الحصر اجحاف لمفهوم الثقافة . واما اعتبار جميع مستويات التعبير وحالا تبدو الفوارق ، فينتج عن ذلك تميز بين اسلام منطقة واسلام منطقة أخرى ..

ونصل الى الاستنتجات التالية : ان التشيع هو الدين القومي للجنس الايراني :

(ـ) أو ان النزعة الخارجية كانت الدين القومي للبربر في القرن 9 والعاشر (م) .

أو أن الدعوة الموحدية هي تعبير على نفسانية المغاربة الدينية .

وحينئذ تصبح نقطة البحث هي : كيف وقع هذا التمييز ، هذا التلوين الخاص لدين عام .. ما هي الدوافع القومية التي جعلت الايرانيين أو البرابرة يتخذون هذا النوع من الاسلام لا نوعا آخر ، ولم يعد المعتقد الديني مضمون القومية ، بل بالعكس نتيجة ، صورة ، لمضمون آخر ، أعمق وأعرق منه ؟ .

ب ـ اذا أخذنا عنصر اللغة ، باعتبارها مستودع تجارب وماضي المجموعة الانسانية التي تتحاور بها ، وقلنا ان اللغة هي التي تعرف قومية الثقافة ، ان اللغة العربية هي التي تحدد عربية أو مغربية الثقافة .

هنا أيضا تناقض ، خفي لكنه حقيقي .

لان أية لغة ، خاصة اللغات الكلاسيكية العريقة ، التي ادخلت في قوالب وقواعد منذ زمن طويل ، تفرض على من يستعملها مضامين كثيرة تحملها في تراكيبها وحتى في مفرداتها .

من يقول أن اللغة أداة فحسب لا علم له بمقتضيات اللغة .. لكن معنى هذا أن كل ما يكتب أو يفكر به بالعربية فهو من قبيل العربية عموما ، حتى اذا كانت ارادة قوية للتعبير عن خصائص قومية دقيقة ، فتكون حينئذ مجاذبة عنيفة بين المضمون الخاص الذي يحاول الكاتب التعبير عنه ، والمغربي العام الذي تفرضه تراكيب ومفردات اللغة ، بحيث المضمون القومي لا يتوصل اليه بمساعدة اللغة بل بمعاكستها .

واذا لم تعاكس اللغة ، أي لم تخلقها من جديد ، فانك لا محالة تعبر عن واقع اللغة ، أي ما اختزن واكتنز فيها من تجارب الماضي ، لا عن واقعك ..

أما القول انه في الماضي ، وقع تعبير قومي داخل الانتاج العربي كما يحاول البرهنة على ذلك اميلوكارتيا جومس E. Garcia Gomes فيما يتعلق بالادب الاندلسي ، فهذا في نظره هراء . لانه لا فرق هناك بين قصيدة ابن شهيد وقصيدة البحتري ..

ان اللغة في حد ذاتها لا يمكن أن تكون عنصر التمييز القومي ، وبالأحرى أن تكون مضمون الثقافة القومية .

ج – يقال أخيرا المضمون القومي هو الواقع .. أي الطبيعة المغربية، الرجل المغربي في ظروفه اليومية ، النفسانية المغربية كما تتبلور اليوم وكما كونها التاريخ .. وهذا المضمون يكفي لاعطاء صبغة المغربية مهما كانت اللغة المستعملة ..

اكتفي للرد على هذه النقطة بطرح السؤال : ماذا تفعلون بالمؤلفين والمصورين الذين اتخذوا المغرب كموضوع لفنونهم المختلفة ؟ أيعتبر دولكروا ، رساما مغربيا لانه التقط اشعاعات الشمس المغربية أحسن من غيره؟ أتكون أعمال الاخوين طارو ، أعمالا أدبية مغربية ؟ أتكون قصة بول بولز P. Bowles ، التي ألفها من اعترافات شاب مغربي سجلها بالآلة ثم نقلها بعد ذلك ورتبها الى فصول ، ووصل بذلك ظاهريا الى أقصى ما يمكن من الرضوخ ، الى الواقع ؟ أتكون قصة حياة ملؤها الفراغ .. قصة مغربية ؟

رغم الظواهر ليس الدين الاسلامي كنظرة الى الحياة والمجتمع والفرد .. وليست اللغة العربية كمخزن لتجارب الماضي ، وليس الواقع الطبيعي و النفساني ، ليست هذه العناصر متفرقة او مجتمعة كافية لضمان مضمون قومه لثقافتنا .. هي تمثل جوانب من شخصيتنا القومية ، لكنها تربطنا بالغير أكثر مما تميزنا عنه .

3 – كيف التوصل الى فهم المسالة بدون أن تتهي الى متناقضات : اما تنفي الثقافة كمضمون وكهدف واما تنفي القومية كميزة ثابتة ذات قيمة ؟

أتقدم الآن بما أراه أحسن وسيلة لدراسة الموضوع .. لعلكم لاحظتم أن التحليلات السابقة ، كلها مجردة ، أي تنظر الى الموضوع كانه مشكل قديم ودائم وتحاول استخراج عناصر الجواب من السؤال نفسه . لم أعد أطمئن الى صلاحية هذا المنطق التحليلي المجرد ، لانه يبث في السؤال افكارا مسبقة ، بدون شعور ويصل الى النتائج التي رضيها منذ البداية .

لذلك افضل بكثير أسلوبا تاريخيا ؛ أي أن ابحث عن نشأة المشكل كمشكل متى ظهر الاهتمام بالمضمون القومي وفي اي ظرف ؟ لان السؤل لم

يكن معروفا في الماضي . كانت الثقافة تعتبر عالمية وواحدة . عندما كتب القديس أغطينوس في نطاق الثقافة اللاتينية المسيحية ، لم يفكر أبدا أن يعبر عن روح بربري . ولا حاول ذلك ابن تومرت في نطاق الثقافة العربية الاسلامية، لم تكن آنذاك القيمة العليا في الخاصيات والمميزات ، فيما يسمى اليوم بالاصالة (أي الانفراد بفكرة أو أسلوب وتركيب ..) بل القيمة كانت في براعة التقليد ، أي احياء نماذج ثابتة .. فمن العبث محاولة اعطاء صبغة قومية لانتاج الماضي ، محاولة ابراز ثقافة الماضي كثقافة قومية هي مضيعة للوقت وأكثر من ذلك مخالفة لما هو بديهي .

المسالة هي مسالة ثقافتنا المقبلة وكيف نعطيها مداولا قوميا، وبما ان المشكل وليد اليوم فمن الصواب أن نبحث عن أسباب ظهور المشكل وهل سبقتنا مجموعات انسانية وواجهت نفس الظروف ..

يبدو لي الآن (رغم انني لا اقدم فكرتي هذه كحقيقة تاريخية لا تقبل النقاش) ان أول من وضع المشكل بكل وضوح وتوصل فيه الى نظرية أثرت فيما بعد على جميع من طرق نفس الموضوع ، هم الالمان في مقتبل القرن 19 .. لماذا ؟ ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تاريخيا ، لا ه كانت هناك ثقافة مكونة ، لها خصائصها ، عبرت عن نفسها بأشكال وصور مختلفة وهي ثقافة الطبقة الوسطى الاروبية (التي ابنت على خمس قوائم : الطبيعة ،العقل ، الفرد ، الحرية ، السعادة .. تنطلق من الطبيعة ، معتمدة على العقل في صالح الفرد لتصل الى السعادة عن طريق الحرية) شاركت في بناء هذه الثقافة منذ القرن 16 أغلب الشعوب الاروبية وقبلتها باعتبارها الثقافة الوحيدة العالمية .. لنتذكر وضع القرن 18 ، هذا فولتير له صيت أوربي يكتب لفائدة النوع الانساني ، هذا روسو يضع الدساتير لبولندة وكورسيكة ، مع أنه سويسري ، عاش طول حياته في فرنسا. هذا ديدرو يذهب الى روسيا ليرشد الامبراطورة كاترين 2 في مشاريعها الاصلاحية. لم يكن أحد يقول آنذاك هذه ثقافة فرنسية أو انكليزية .. بل لعهد كان عهد للقومية (الكوسموبولتية) وحتى اللغة ، لم يكن الالمان والروس في الطبقات الارستقراطية على الاقل يتكلمون الفرنسية فحسب بل يحتقرون لغتهم الاصلية

حتى انه نسب الى فريدريك 2 أنه قال أن الالمانية لا تصلح الا لمخاطبة الكلاب) ..

ثم انقلب الوضع . ماذا حصل ؟

حصلت الثورة الفرنسية ، باسم المجيع وصفق لها الجميع ، مع شعراء انجلترا الكبار الى فلاسفة الالمان ، في مرحلتها الاولى ، ثم انقلبت في مرحلتها الثانية الى حكم فرنسي مفروض على كثير من الشعوب أصبحت الثقافة الانسانية وسيلة بين يدي مستغلين فرنسيين ، ورأي في ذلك المثقفون ، خاصة في ألمانيا المغلوبة ، اخفاق الثقافة الانسانية العالمية وظهر رد فعل هذا في جميع الميادين : في الفلسفة ، في الادب في الموسيقى في الفكر السياسي وهذا في جميع الميادين : في الفلسفة ، في الادب في الموسيقى في الفكر القانوني حيث الفكر القانوني حيث نشأت المدرسة التاريخية في القانون لنقد قانون نابليون الموحد . ما هي النقطة الأساسية في هذا التحول الذي عم جميع مظاهر الثقافة ؟

يمكن أن نجد أحسن تعبير عن ذلك في كتاب فخته «خطب الى الالمان» 1807 .. في هذا الكتاب نقد مفصل وعميق للثقافة الفرنسية كما تراءت للقرن 18..

ـ هذه الثقافة العالمية الانسانية مجردة ، تشخط عقل الانسان لا وجود الانسان ، انها تدعى التعبير عن الجميع في حين أنها لا تعبر على أحد ..

ـ هذه الثقافة في الواقع فرنسية وتحمل خصائص الشعب الفرنسي ، من بينها خاصية السطحية ، لماذا ؟ لان القبائل الجرمانية التي سكنت فرنسا تخلت عن لغتها الاصلية وتكلمت اللغة اللاتينية ، فأصبحت بذلك تتكلم لغة ميتة بالنسبة لها ولا تعبر الا بما تقتضيه هذه اللغة ، فأصبحت مقيدة مستعبدة لا تعبر الا عن التوافه ..

ـ أما القبائل الجرمانية التي مكثت في المانيا واحتفظت بلغتها ، بقيت حرة العقل والاحساس . وثيقة الصلة بماضيها وبمحيطها الطبيعي ، فجاءت ثقافتها حية ، عميقة ومتينة . هذه الثقافة الالمانية وحدها حية ويجب أن تستمر وتنمو ، بل يتحتم عليها أن تتغلب على الشعوب الاخرى .

نلاحظ أن جميع العناصر التي ستستعمل فيما بعد في كل ما يكتب عن

الثقافة ، أهمية اللغة ، الرباط بين الثقافة والمحيط الطبيعي ، موجودة هنا . لكن النقطة الأساسية هي أن الخصوصية القومية التي يتكلم عنها فخته ، هي في نفس الوقت قابلة للتعميم ، لا تعني انعزالا أو نفيا لوحدة الثقافة ووحدة الانسان ، بل الثقافة الالمانية ، من خاصيتها الحياة والعمق والغزارة ، بذلك تستحق التعميم . نتوصل بذلك الى نظرة جديدة الى الثقافة مخالفة لنظرة القرن 18 .

هذا الاخير كان يرى الثقافة كمجموعة أفكار وأعمال وأنظمة وسلوك ، يمكن تحديدها مسبقا ودفعة واحدة ، وهذه الثقافة عالمية من أصلها ، انما تتعمم تدريجيا وسطحيا .

أما النظرة الجديدة فانها ترى الثقافة كعملية تثقيف متواصل ، يقوم به بالتداول ثقافة قومية خاصة بعد أخرى .. وفي كل مرحلة تتلخص الثقافة العالمية في ثقافة خاصة قومية الى أن تؤدي هذه دورها وتتفلت منها الحياة فتتخلف وتعود فارغة جوفاء (بمعنى أنها تصبح خاصة تماما أي لا تمثل الا المجموعة الانسانية التي تنتجها بدون امكانية تعميمها .. (نعرف كيف ستتطور هذه الفكرة عند هيجل الذي سيطلقها على سير التاريخ بأكمله) ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نؤكد على هذه النقطة الاساسية ، وهي أن المضمون القومي في هذه النظرية والمضمون الانساني لا ينفصل أحدهما عن الآخر .. أي أن خاصية الثقافة في وقت من الاوقات هي أنها تعبر بكيفية أوسع وأعمق وأمتن عن الانسان بين الثقافات الاخرى وبذلك تصبح عالمية : أما الخاصية القومية في ثقافة الالمان في بداية القرن 19 ، تكمن في عمقها بالنسبة للثقافة الفرنسية أو الانجليزية ، لا في أنها من الالمان وللالمان وحدهم .. هذه طبعا دعوة الالمان . أما النتائج ؟

ليس لنا الوقت لتحليل مكاسب الثقافة الالمانية . نكتفي بمثال واحد .. في ميدان المسرح وأخذه في فترة سابقة بقليل لاذكاء الوعي الالماني .. ان المسرح الالماني عموما سيدخل عنصر التاريخ كأداة درامية .. لم يكن المسرح الفرنسي يعرف التاريخ ، كان يتخذ مواضع تاريخية لكن نفسانية الاشخاص لم تكن تصطبغ بالتاريخ بل كانت الدوافع ، التي عليها تبني المأساة هي الدوافع

العامة التقليدية من طموح ،وحب وخسة وحسد . وهذه لا تغير من الروماني القديم أو العثماني المعاصر .. في الدراما سيدخل الالمان التاريخ كعنصر درامي وانساني . . لناخذ اكمون 1787 لجوته ، وهي مأساة قائد نبيل يثور ضد الحكم الاسباني المتسق في الولايات المتحدة الهولاندية في القرن 17 .. لكن الدافع الدرامي هنا ليس هو الحب (مع أن هناك قصة حب) ولا الطموح (مع أن أكمون قائد عسكري يحب الشهرة) ولا تنطع الشباب . (مع أنه يظهر بعض التهور) هذه دوافع انسانية عامة ، لا يخصصها زمان ولا مكان ، بل الدافع الاساسي في مأساته هو التناقض الناجم عن الوضع التاريخي ، لانه يقود حركة شعبية وهو نبيل ، بحيث يربطه بالطبقات الشعبية وعلى رأسها الطبقة الوسطى هدف التحرر القومي ، وتربطه بالقواد الاسبان الذين يحاربونه صفة النبل لانه واياهم ينتمون الى نفس الطبقة ، أي مأساته الشخصية ستنبعث عن أنه مقسم بين ولاءين : الولاء القديم المرتكز على الخدمة والوفاء لصاحب السلطة ، والولاء الجديد للمجموعة القومية .. هذا الانقسام النفساني هو الذي يجعله يتردد ، يرتكب أخطاء ، يسقط بين يدي أعدائه يحاكم ويشنق .. وأقصى المأساة ليس في موته بل في كون الشعب لا يمكن أن يتخذه كبطل او رمز النضال لانه نبيل أصلا ويبقى نبيلا ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا النوع من التركيب الدرامي الذي يلعب فيه التاريخ دورا محركا أوليا ، لم يكن يوجد عند كتاب التراجيديا الكلاسيكية ولا حتى عند مبتدعي الدراما الاجتماعية في القرن 18 ..

لذلك حينما ستندلع الثورة الفرنسية سيعيش بعض افرادها هذا الموقف (لنتذكر نبيلا ثوريا كلافيست) لم يكن يجد داخل الثقافة الفرنسية نمطا للتعبير عنه ، في حين أن هذا النمط كان موجودا عند الالمان الذين لم يعيشوا بعد أية ثورة عصرية .

ستعود فيما بعد هذه الظاهرة من خصائص المسرح الالماني ، الذي سيبرز أصالته ، لا في كون الموضوع المانيا ، لا في أن اللغة المانية ، بل في ابداع نمط من التشخيص ممكن بل يتحتم على الغير أن يقتبسه

للتعبير عن نفسه ، وهذا التركيب باندرامي ، يتحتم اليوم على كثير منا اقتباسه لانه ما زال يمثل جانبا من واقع أكثرية سكان العالم في حين أن ترديب مسرح القرن 17 و 18 لا يجد فينا أي صدى معيق .

لو كان عندي الوقت ، لاظهرت كيف أن الروس في أواسط القرن 19 اقتبسوا هذه النظرية بعينها وطبقوها على أنفسهم قائلين : الآن أدت الثقافة الالمانية جميع مهماتها وجاء دور الجنس السلافي ليعمق ويوسع نطاق الثقافة. وفعلا فعلوا ذلك في القصة والموسيقى والرقص ..

حيث ادخلوا عنصرا جديدا وتركيبا جديدا ، هذا العنصر هو الفلاح .. لم يكن الفلاح موجود في ثقافة القرن 18 ولا ثقافة القرن 19 ، انما كانت الضيعة وحياة الفلاح يرى اليهما من وراء نظارة الرومنسية ، أي حياة الطيبوبة والسعادة الاولية ، فادخل الروس الريف كما هو بألوانه الحقيقية وتعاسته ، وقوة ذلك ابتدعوا صورة فنية جديدة ، كمادة درامية في المسرح والقصة وحتى في الموسيقى وهو ما يمكن التعبير عنه بالزمان المتثاقل .

كان للزمان في الثقافة السابقة سرعة معينة وهي سرعة الساعة الآلية والدورة الشمسية ، والكل يعلم أن هذا الزمان فيه أوقات مفعمة بالاحداث والانكار ، وفيه أوقات فارغة . فالزمان الفارغ يعبر عنه بالمذاكرة التافهة وهذا ما نجده في القصص الانجليزية ، لكن ماذا يحصل اذا كان في مجموعة انسانية معينة من يعيش هذه الاوقات الفارغة وهو يعلم أن هذا الوقت بالذات مفعم بجليل الاعمال في مجموعات انسانية أخرى ، ماذا تكون نفسانيته ؟ ماذا تكون احساساته ؟ هذا ما عبر عنه كبار المؤلفين الروس وبذلك لم يروا في الاوقات الفارغة ، زمنا متثاقلا وهم اليوم بناء ثلاثة أرباع هذه الدنيا ..

ماذا نستنتج من كل هذه الامثلة بالنسبة لنا ؟

اننا بدون نزاع نجد انفسنا في موقف يشبه كثيرا المواقف التي حاولت ابرازها من وراء المثال الالماني والمثال الروسي .

يمكن أن يقول قائل : هذه أمثلة عالية جدا .. وأنا طبعا لا اريد أن تكون ثقافتنا حالا في المستوى الذي ذكرت ، لكني مع ذلك أعارض بشدة فكرة رائجة

عندنا وهي أننا يجب علينا أن نقنع في الميدان الثقافي بما يناسب مستوى تطورنا الاقتصادي والفكري .. ان الدعوة الى عدم الطموح هي ناتجة عن تخلفنا الفكري ، ان أصبنا أم أخطأنا ، ان نجحنا أم أخفقنا يجب علينا أن نرفع المقاييس مهما كانت النتائج .. هذا لا يمنع قبول كل ما ينتج والتصفيق له ، حتى التافه، حتى الابتدائي والتدريبي منه ، لأنه في الكثرة تكمن امكانية النبوغ ، لكن من الضروري اقصاء منطق « على قدر حالنا .. » تبعا لذلك اني أعارض تماما أن يمزج الفلكلور بالثقافة ، اذا كان السواح يتمتعون بالفلكلور ، واذا أراد السواح الداخل وكثيرا ما هم أن يفاخروا به فليهم ذلك، أما أن يقدم ذلك على أنه لب ثقافتنا القومية فاني أرى فيه احتقارا لماضينا ولحاضرنا ..

نتيجة لهذا ان العزلة الثقافية لا مبرر لها . القول «ماذا ينفعنا الاطلاع على طرق الفن الجديد أو التعابير المبتدعة ما دامت سوقنا لا تتقبلها ، والقراء لا يفهمونها ، فهذا منطق خاطيء لان الحكم على انتاجنا ، آخر المطاف ، سيكون حكم الخارج ، لا حكم بعضنا على بعض .

ان خلق ثقافة هنا واليوم وحدنا ، هو في الواقع خلق فلكلور جديد ، لا أقل ولا أكثر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان موقفنا اليوم يتلخص في رفض ثراتين : ثرات الثقافة المسيطرة على عالمنا الحاضر ، التي تدعى العالمية والانسانية وتعرض نفسها علينا الى حد الالزام والضغط ، ولا تفتح لنا بابا سوى باب التقليد أو الاعتراف بالقصور، وثرات ثقافة الماضي الذي اخترناه تعبيرا لنا في عهودنا السابقة لكنه لم يعد اليوم يعبر عن جميع جوانب نفسياتنا .

نحن مطالبون بنهج طريق ثالث غير طريق تقليد الثقافة العالمية الحديثة لاننا نحس أنها غير محتاجة الينا (ماذا ينقص الأدب الفرنسي لو ضاعت الكتب التي ألفها بالفرنسية كل العرب وكل المسلمين) وغير طريق تقليد الثقافة العربية القديمة لانها أو لا غير محصورة في قومية واحدة ، وثانيا لانها بدورها غير محتاجة الى انتاجنا (لنحذف جميع كتب العقاد وطه حسين وهيكل، وكل القصائد التي ألفت منذ عهد البارودي ، ماذا ينقص ذلك من قيمة الشعر العباسي ، من تاريخ الطبري أو من مقامات الهمذاني) . حقا ان الأدب العربي

القديم غير محتاج الينا حتى لا حياته ، لانه يطبع من المخطوطات في أوروبا وأمريكا قدر ما يطبع في الدول العربية كلها ..

لا بد اذا من اتجاه ثالث ، مبني على التجربة والمغاطرة ، لكن يجب ألا ينحصر هذا الاتجاه في البحث عن خاصيات تومينا والتعبير عنها لان في ذلك انزواء وفلكلورية ، الخاصية ليس معناها حتما الرفض والمغايرة : قد تكون كذلك كما رينا ، في القبول والانمام .. ليس من الضروري أن نبدأ برفض أشكال الثقافة العالمية ، بل يمكن ويجب أن ننطلق منها ، محاولين تعميقها وتوسيع طاقها . مظهرين أن هذه الثقافة التي تدعى العالمية ليست عالمية ، تماما ، ننقصها تجربة ، هي تجربتنا التي ان نجحنا في تشكيلها ، كسبت مدلولا عاما .. وهذه لتجربة يجب أن تتبلور في شخصية جديدة ، في موقف جديد في احساس جديد وفي تعبير جديد ..

ـ لكن دون هذه الغاية شروط :

أ ـ معرفة معطيات الثقافة الحديثة لا تعوض الجهل أو التجاهل .. خذ مثلا اختفاء البطل الايجابي من القصة ، أو التصوير من الرسم او الانسجام من الملحين ، هذه طبعا تقنيات تعبيرية لكن لها أصول واسباب في المجتمع الاروبي ، حيث أضمحل دور الفرد في المجتمع ، واختفت الطبيعة من المحيط الانساني وانعدم الانسجام والتناسب في ذوي الصناعة الحديثة ، فلا يمكن اذا لفنانينا وقصاصينا أن ياخذوها كتقنيات لا غير ويقلدونها كأنها معطيات انسانية دائمة ، يجب أن يبحثوا في اعمالهم على مضامين تنسجم مع هذه الشكليات ، والا كانت اعمالهم غير معبرة .

ب ـ معرفة تجربتنا التاريخية في كل مظاهرها ، لانها هي الهيكل الاساسي الذي يشد الواقع ، والا لتفتت هذا الاخير الى تلويحات عابرة كالتي تتتابع على مقلة الصبي ، يترتب الظاهر على طبقات وهي تصفي آثار التطور التاريخي في المناظر وفي النفوس وفي العقول ، والتنقيب عليها يتطلب علما وروعا ومثابرة ، لا يحق للقصاص أن يقول : ماذا يعنيني ابن رشد ولا يحق للفنان ان يقول : أية فائدة في التاريخ ، حقيقتنا ليست في الظاهر ..

ج ـ اذكاء الوعي .. كثر الكلام على ثقافة اللاوعي ، ومنبعه الجهل او الانخداع ، لان هناك فرقا بين اللاوعي المصطنع (هذا ما يفعله كبار الفنانين

اليوم) واللاوعي الطبيعي ، الذي يتحلى به البعض عندنا ، وهذا الاخير لا ينتج لا الفلكلور ..

اذا اجتمعت هذه الشروط من وعي ، ومعرفة الثقافة العالمية معرفة دقيقة ومعطيات تجربتنا التاريخية ظهر أن الكثير من المسائل التي تبدو في الغالب متنافرة هي في الواقع متكاملة بل متلازمة .

كالتناقض عند البعض : بين التراث الغربي الاسلامي والثقافة الغربية .

بين اللغة العربية أو اللغات الاجنبية .

أو بين المواضيع القومية أو المواضيع العالمية .

في هذه النقط الثلاث لا يجب الفصل بل الوصل بينها ..

قال الجاحظ ان المرء لا يحسن الكتابة في لغتين . وهذا صحيح ، وكان عليه أن يزيد لا يمكن للمرء أن يحسن التأليف في لغة دون الالمام بلغة أخرى لانه بدون هذا الشرط لا تتأتى معرفة امكانيات اللغة الاصلية . والدليل على ذلك أن كبار كتاب اللغة العربية كابن المقفع والهمذاني والتوحيدي والغزالي ، كانوا يحسنون الفارسية ، وكان أبو اسحاق الصابي يحسن اليونانية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما ما يتعلق بالمواضع أو التراث الثقافي ، فعلينا أن نفتح أعيننا لنرى ان المحيط الذي نعيش فيه خليط من ثقافتين ، من تراثين ، لا بد اذا من مزج المواضع ، والا تجاهلنا ظاهرة من ظواهرنا والتجاهل مرة ثانية لا يخلق ثقافة .

هذه الشروط تمهد السبل للتعبير عما في تجربتنا التاريخية ، يخصنا وفي نفس الوقت يعمق مفهوم الانسان ..

لان كل ثقافة ، في آخر المطاف ، هدفها الاسهام في رفع مستوى الانسان .

يكثر اليوم الكلام عن الثقافة اللانسانية ، أما فوق الانسان تعبر عن حقائق

دائمة متعالية ، واما تحت الانسان ، تختلط مع الطبيعة والغرائز ، كل ثقافة في نظري تـهدف الى غير الانسان فهي ليست بثقافة ، للثقافة مفهـوم وهو تعميق مقدورات الانسان ، لذلك عدم القناعة بالثقافة الغربية المتقلبة اليـوم ليـس من قبيـل الحقد والاعتزاز ، وانما هو ضرورة انسانية ، من الدوافـع الاخلاقية أن توسع كل مجموعة انسانية نطاق المضمون الثقافي ، وبذلك تكون قـد عبرت عن نفسهـا .

اذا حرصنا على جميع هذه المتطلبات ولم نفرط في أية منها ، نكـون بذلك قد تهيأنا لخلق ثقافة جديرة بنا وبماضينا ، ويكون هذا الوفاء بلـورة لقـوميتنـا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمد بيدي

أربعة وجوه صغيرة

الى وجه من هذه الوجوه ،،
الى أخي بوشعيب حركات لذي انتهى الى السجن دون اقتناع بمسؤولية ما ارتكب ،، والى الوجه الآخر .. الى ابن عيسى الذي ما زال يجري خلف امكانيات ماضيه الضائع ..

(1)

الآن تبدو لي تلك الوجوه الصغيرة داخل اطار صورة بارزة فوق أرضية ضبابية .. الاجسام الأربعة متلاحمة متداخلة في الطاولة الاولى من الصف الاول ، أمام مكتب المعلم مباشرة ، قد كانت الطاولة المنحنية الضئيلة لا تسع سوى تلميذين اثنين ، الا أن القسم يضم خمسين تلميدا ويتوفر على أقل من خمسة عشرة طاولة ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان نظري أثناء الدرس ، ينطلق من هذه الطاولة بالذات ويرتد اليها عشرات المرات ..

ما الذي كان يجعلني أتشبث بهذه الوجوه أكثر من غيرها ؟ .. ربما لكونها وجوها صغيرة تبدو عليها ملامح رجولة باكرة وتبدو أيضا متناقضة فيما بينها ، بل لأنني كنت أعلم أن هذه هي الفرصة الاخيرة لهؤلاء التلاميذ الاربعة . ان سنهم جميعا يقرب أو يجاوز بقليل خمسة عشرة سنة ، واذا لم يوفقوا في آخر السنة للدخول للسادسة فانهم حتما سيطردون .

(2)

« أحمد دريديبا » التلميذ الذي على اليسار لا ينقصه ذكاء ، كثير

الاستطلاع ، ملحاح وجريء حتى أن بعض اسئلته تثير في القسم ضجة من الضحك ولكنها في الحقيقة ، أسئلة قد لا تخلو منها أذهان الكبار أنفسهم :

ـ « أستاذ ، هل صحيح أن الروس سيصلون الى القمر ؟

ـ لماذا يا أستاذ ليس في بلادنا مثل طه حسين ؟

ـ أستاذ ، ألا نستطيع أن نحل هذه المشكلة الحسابية بطريقة ثانية ؟

ـ أصحيح أن سيدنا قدر ينزل في ليلة القدر ليلبي رغبات المؤمنين يا أستاذ ؟

ـ كم يلزم من الوقت لكي يصير الواحد طبيبا ؟ لماذا ؟ .. ألف لماذا ؟

كنت أعطف كثيرا على « دريديبا » . قد يرجع ذلك الى أسئلته المتشعبة التي كانت تنعش أحيانا غروري .. الطفل المسكين يحسبني موسوعة . لا يخطر بباله أنني مثله أعمى في ظلمات لا نهاية لها .

فأنا لم أتمم دراستي الثانوية بعد. لم أحظ في طفولتي بتوجيه يفيد، ويطلب مني بعد ذلك أن أقوم بتوجيه هؤلاء جميعا .. مهما يكن فحظ زملائي ليس أفضل من حظي ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شيء آخر يجعلني أعطف على هذا التلميذ . أنه مثلي يتيم . ويعيش مع أمه التي تشتغل «صبانة» عند الناس . له ستة أخوة ذكورا واناثا ، أحدهم يعمل ـ فيما أعلم «طراحا» في فران والثاني «سركليس» بلا مستودع ولا أدوات ، يكتفي بالجلوس في طريق «مديونة» ليصلح دراجات العمل التي قد يصيب عجلاتها عطب مفاجيء .. أما الثلاثة الباقون فهم لا زالوا صغارا .. «سهم الخبز» كما أقول .. غير أن دريديبا لم يكن منطويا على نفسه كما كنت. كان يبدو كأنه لا يعي الفوارق التي تبعده عن الآخرين أو تبعد الآخرين عنه . أذكر أنني لما كنت في مثل سنه كنت اتألم لأدنى شيء .. كنت أقارن دائما نفسي بالآخرين ، فكان ذلك مصدر عذاب لي : تلميذ يحمل محفظة جديدة أو يرتدي بذلة أنيقة أو يملك دراجة أو يرافقه أبوه الى المدرسة أو يفوز بنقطة ممتازة في الامتحان ... مثل هذه الاشياء البسيطة كانت تجعلني أنفر من زملائي وأتفاداهم كأني أخاف أن يستطلعوا ما يروج بنفسي فيهينونني ويجرحون كبريائي ..

دريديبا منبسط المزاج لا يهـرب من عيون الناس ، لا يحاول اخـفاء عيوبه بل يفضحها أمام الجميع ، يدفع زملاءه ليصخروا منه ويشاركهم ضحكهم بكل قلبه . ان طبعا كهذا يساعد على النجاح في الحياة بلا شك .

ذات يـوم نهـرته :

ـ « لماذا لم تحضر الدرس ؟ أين هي كتبك ودفاترك ؟ »

أجابني بكل هدوء وطيف ابتسامة على وجهه :

ـ « كلها انحرقت يـا أستـاذ .

ـ « من حـرقها ؟ »

ـ «اللـه أعـلم يـا أستـاذ » .

ـ « كيف لا تعـلـم ؟ »

ـ لقـد شب أمس حـريق في «كاريان بن مسيك» وذهب ايضا بالبراكة التي نسكنها .. والله العظيم يا أستاذ كتبت الانشاء ولقد بحثت عنه بعد أطفاء النـار ، ولكن لـم يبـق منـه شيء » .

وضج القـسم بالضحك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(3)

على يمين أحـمد يجلس «بوشعيب حركات» الجاحظ العينين ، الازعر البشـرة . هو أمتن بنية من زملائه . يتربع بكل ثقله وسطهم ، مزاحما هـذا وذاك ، مشمرا عن ذراعيه المتلئتين بينما أستكانت قبضتاه أمامه فوق الطاولة. نظرته المحدقة لا تكاد تنفصل عن حركاتي . كنت متيقنا مع ذلك أن رأسه ليس هنا بل بعيدا جدا عن القسم .. هنـاك في « الفـارويست» مع رعاة البقر أو مع المقامرين في مدينة «شيكاغو» لقد سلبـت السينما مـخ هذا المراهق . طغت الافلام عنده على الواقع . فهو تارة مع بورت لانكستير ، وهانري فوندا، وطورا مع صوفيا لورين وأنطوني كوين وغيرهم .. عثرت مرارا على صـور هؤلاء الممثلين بين طيات دفـاتره .

داخل القسم كان يبدو هادئا ساكنا ، أما في ساحة المدرسة أو الشارع فهو «طرزان» أو «الخارج عن القانون» يعاكس فتيات ونساء ، ويرعف انـوف

أترابه أو يستولى على بعض أدواتهم .. لذلك كثيرا ما كان أبوه يعترض طريقي أويز ورني ي المدرسة ليشكو لي تعسه مع ابنـه .

ـ «الله يخليك الفقيه لما بالي به .. ربيه .. ربيـه . خـاصو التربيـة بـزاف . راه قهرني وشوه بي ..

ـ وماذا عساني أعمل معـه يا سيدي ؟ ..

ـ انهه . راه يحشـم منك . و .. و .. دبر ليه من دابا لله يطول عمرك عـلى شي خـديمة . أنا شبت وتقاعدت وخوتو ستة وازمان صعاب وكيبغـي الـعـوين ...

مشكلة جيل كامل . لماذا تلدوننا أيها الوالدون ؟ ألم يكن في حسبانكم أن الزمان صعب متغير أبدا ؟ لماذا لم تحتاطوا لهذا الزمان الذي يتغير عليكم وعـلينا ؟ .. أنا أيضا لي أربعة اخوة . لأجلهم غادرت المدرسة .

الوجه الثـالث ..

(4)

أيها الوجه المسنون الكئيب ..

أيتها السمـرة المستقيمة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد كنت أخاف من أنطوائك وأرفق بخجلك .. أنطوا ك مثل انطوائي يدفن الاما صغيرة عميقة .. فلا تنحصر أيها الطرف أمامي فاني أفهم سرك ..

فكرة سخيفة . ولكني كنـت أعتقد أن عبد الله بن عيسى يحمل نفسـا أقوى من جسمه المتضائل تحت هذه الطاولة القصيرة . كان منزويا صامتـا حييا ألما يهمس بسؤال . حركاته متعثرة ونظرته عميقة متهربة . وكـان التلميذ الاول في القسم ويبدو أنضج من سنه بكثير . لست أدري لماذا دائما صورته تقترن في ذهني بفكرة المصير فأستعرض حيوات ذوابغ ومجـانيـن وقديسين كانوا في البدء مثله ينطوون على سر أكبر من حياتهم . لعلني كنت فعلا أنتظر منه أن يأتي بشيء كهذا . أن تكشف الا ام عن سره أن يلفت اليـه الناس بقدر ما يتهرب من عيونهم . أو أن يتحطم سره ، فيذوب في الابتـذال والتفاهة .. لعله لم يكن في الحقيقة سـوى انعـكاس لنزواتي المضطربـة .

ولكن صمته جعل مخيلتي تحيك له هذه الصورة المتفردة . فلم أكن أعرف عنه سوى أنه ترك والديه في ناحية «بوسكورة» ليعيش هنا مع عمته ، وأنه يطالع كثيرا كتب المنفلوطي وجبران وألفونس دوديه .. هل يتسنى له أن يسير بعيدا ؟

(5)

لا غرابة أن تكون بذلك عبد الرفيع الذهبي أجود من بذلة معلمه . فأبوه يبيع الأثواب بالجملة في درب عمر ويسكن في « ليرميتاج » .

على عكس زملائه يبدو وجه عبد الرفيع منتفخا متوردا يكاد ينحبس الدم من وجنتيه وتكاد الحلويات والشكلاط والفواكه على اختلافها تطفح من ثقب أدنيه الكبيرتين الضيقتين . لا تخلو جيوبه ولا محفظته أبدا من هذه الأشياء . عيناه الناعستان ترمشان في غباوة مثل بقرة تجتر حمولة بطنها . يخيب ظني لو ينجح هذا الحيوان المتخم . أبوه يدعوني دائما للاكل عندهم ويطلب مني أن أمر عليه في متجره الكبير ، كأنه يخمن شعوري نحو ابنه . يريد أن يستميلني اليه ببعض الهدايا . مائة درهم أو قطعة ثوب انجليزي رفيع . أرفض ذلك بعناد . ليس لانني مثالي ـ فالمثالية والكرم والشرف وتلك الاشياء الاخرى أصبحت عندنا بضاعة كاسدة .. نوعا من الغباوة أن شئتم ـ ولكن لاني أعرف أن هذا التاجر الوثق من نفسه ، من دهائه سيعتقد ، اذا قبلت هديته ، أنه غدا يملكني . سيظهر ذلك جليا في عينيه من أول لقاء .

(6)

« من جد وجد ، ومن زرع حصد » .

كان ذلك هو موضوع الانشاء الذي أعطيتهم اياه هذه المرة ككل السنوات التي سبقت هذا الفوج وككل السنوات التي تأتي بعده . الذي وجد كل شيء اليوم هل وجد قبلا وكيف ؟ الذي يحصد اليوم هل سبق له يوما أن زرع شيئا . هناك من زرع أو يزرع بذورا طيبة ولكنه لا يحصد غير الاشواك أو لا يحصد شيئا .

سيعرف الاطفال هذا بعد أن يغادروا المدرسة .

المهم انني لست أدري كيف ـ وأنا أشرح الموضوع ـ سألتهم بغتة بصيغة توددية كاذبة :

ـ «ماذا تودون أن تعملوا في المستقبل ؟ بماذا تحلمون جميعكم ؟ » .

تهاطلت على الأجوبة ـ أجوبة ساذجة موحية حالمة مبالغة كاذبة ـ من كل صف ومن كل طاولة :

ـ «معلم .. مفتش .. ساعي بريد .. طبيب ،، بطل كرة القدم ،، طيار .. ممثل .. شرطي الخ .. الخ ... » .

ولكن الاجوبة التي كانت تعنيني أكثر من غيرها وأتشوق لها هي بالذات أجوبة الطاولة الاولى أجوبة وجوهي الاربعة :

ـ أحمد دريدبا ، وقد تألقت عيناه وتهدج صوته : «مدير بنك»

ـ بو شعيب حركات في ثقة وسرور عارم : «جيمس بوند» .

ـ عبد الله بن عيسى . أيها الوجه المسنون الكئيب .. يا أنا الآخر الذي اجهله . اريد أن تقول «باستور» أو «بتهوفن» او شيكسبير» او اي شيء. اريد ان تنطق . أن تظهر سرك . ولكن وجهه كساه احمرار شديد وأخذت أنامله ترتعش وتنقر بعصبية على الطاولة وأطرق برأسه وتمتمت شد تاه بدون جدوى . لن يجيب أو سيكون جوابه اعوج . انني اعرف هذه الحالة جيدا لذلك أعفيته من عنائها وانتقلت الى زميله .

ـ عبد الرفيع النهبي ، ارتفعت قليلا الاهداب شبه المطبقة وانفرجت الشفتان الانثويتان مترددة متخوفة .

ـ قل بسرعة ماذا تريد أن تكون ؟

اجاب ببلاهة :

ـ « لا شيء »

لو صح ذلك بعثت بأبيك الى « بئر الشيد » مع المجانين

ـ الا تريد أن تكون تاجرا مثل ابيك او ..

ـ وزير

ـ وزير ماذا ؟

ـ « وزير .. وبركة .. »

(7)

كان كل ذلك فـي سنـة 1959 .

(8)

سنـة 1967

الوحل والبرودة التي طالما تسربت الى قدمي من ثقوب حذائي الأغـبر القديم دفعتني ذات مساء الى ان اتسكع في سوق «البحيرة» بحثا عـن حذاء جـديد يكون ثمنه مناسبـا لانتفـاخ جيبي .

ملابس ، جـوارب ، أواني مختلفة ، كتب ، أدوات للزينة .. الف حاجة وحاجة مبثوثة مباشرة فوق الارض ، في فوضى أو على موائد خشبية قديمة . الممرات تغص بالبائعين والزبناء والفضوليين أطفالا ورجالا ونساء يشـكلون سوقا تلقائية رائجة . أصبح كل الناس بائعين مشترين في هذا البلد ولـكن جلهم لا يتعدى رأسماله خمسين درهما . ماذا تبيع هذه المرأة الذليلة النظرة؟ وشاح قديم وزحام للنساء وكبة صوف . وهذا الرجل الذي لم يحلق ذقنه منـذ أسبوع على الأقل ، يجلس في هدوء مستسلم وراء ابريق صدىء ودمية صلعاء ميتورة الذراع ومعه أصفر قديم وأشياء أخرى مجهرية ..

كل ذلك اطار .. انا في حاجة الى حـذاء

المرافق تتدافع في الممرات المتزاحمة .. هذه أحذية كاعبة للنساء .. وهذا .. هذا حـذائي . أخذت اقلبه وقبل أن أرفع عيني نحو صاحبه شـدت يـد بحـرارة عـلى يـدي .

ـ اهـلا أستـاذ وو ..

هذه البسمة الصافية تتألق بها عينان صريحتان ، ليست غريبة عنـي

ـ آه ... دريديبا ... كيـف حـالك ؟

ـ وانت يا أستاذ بخير .. أما زلت تدرس ؟ انني سعيد جدا برؤيتك يا أستـاذ ...

ـ وانـا كذلك . ماذا تعمـل الآن ؟

ـ كـمـا تـرى .

ـ لقد نجحت فيما أذكر . ألـم تتـابع دراستـك ؟

ـ نجحت ولكن العين بصيرة واليد قصيرة يا أستـاذ ..

كان وجهه أغبر تناثرت فوقه زغيبات دقيقة ناعمة وعلى رأسه قبعة قديمة.

ـ المهم يا أستاذ أن يربح الانسان خبزه بوسيلة أو بأخرى ..

ـ نعم .. نعـم . الوالدة واخوتك لا بأس عليهم ؟

ـ لا بأس الحـمد لله .

ـ هذه الأحذية لـك أنـت ؟

ـ بلى . يوم دخلت السوق كان لي حذاء واحد .. واعدت العملية الى أن فتح لـي الله بـاب الـرزق .

ـ الحـركة مـاشية ؟

ـ شويا . على قدر الحال . نتعفرو مع الزمان ..

خيل لي أنه أصبح أكبر مني سنا . ولكن تساؤله يدعم كفاحه .

ـ سأحاول أن شاء الله أن أعثر على دكان صغير في المدينة ..

ـ الله يعـاونك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ودعته بعد أن أخذت منه الحذاء . رفض أن يتسلم مني ثمنه . ولكنـي ألححت عليه فقبل على مضض أن يتناول مني ثمن شرائه .. بدون ربح .

(9)

صادفته بغتة في أحد ممرات كلية الحقوق بالرباط .

البرميل الصغير أصبح رجلا متين البنية فارع القامة وسيم الملامح ، يرتدي بذلة أنيقة جدا ، تحجب عينيه نظارة ذات اطار ذهبي توحي بالاحترام. كنت أظهر أمامه تزما عجوزا . انحنى قليلا ليصافحنـي :

ـ كيف الحال ، مسيو الحسنـي ؟

خاطبني بفرنسية ملثوغة . ليس في نظرته سوى فضول عادي جدا .

ـ الحمد لله . وأنت يا عبد الرفيـع ؟

ـ تـو فا بيـان . مرسـي .

ـ انت طـالب هنا بلا شك ؟

ـ نعم بقيت لـي سنة وأتخـرج .

وددت لو أتركه وأتابع طريقي دون أن أسمع بقية حديثه ودون أن أودعه.

ـ لماذا لم تختر شعبة العلوم مثلا . الحقوقيون كثيرون ..

ـ وي الا أنني أفضل أن أتبع هواتي . الحقيقة أنني أرى بعيدا ..

أتراك لا زلت تحلم بالوزارة .. بدون مقدمات سألني فجأة وقد بدا في عينيـه أرتباك طفيف :

ـ مسيـو الحسني ، تنتمي لأي حـزب ؟

ـ لحـزب اللـه .

قلت وأنا أضحك رغما عني . البليد لم ينتبه لاستهزائي . فقد أردف دون أن أسـألـه .

ـ أنا انضممت الى حزب على الوصالي .. تعرفه بلا شك . هو خال أمـي .. حـزبنا نحن هو الحزب الصريح الوحيد الذي يعبر عن مطـامـح الشعـب أليـس كذلك ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اجبت في قرارة نفسي . ولذلك فهو مرشح للحكومة من جديد .. ليلبي مطامح الشعب في أشخاصكم لا ريب .

(10)

مرة أخرى تاهت بي الدوامة داخل المقاهي العديدة . لاضبط للزمـن قبل منتصف الليـل ولا بعده . الزمن ذوب في الكأس التي تفرغ لتمتليء .. ضحكات ثرثرة صاخبة طول المتكأ .. قليلة هي الكلمـات التـي تستـرعى الانتبـاه ... فجـأة :

ـ «تـورني جيـنيـرال» .

من يكون هذا الطائي الذي يريد أن يربح كل الجيوب ثمن كأس . رفعت عيني الى المرآة الكبيرة أستطلع . اشتبكت عفوا عيوننا . عـرفني وعرفتـه .

شيء عجيب حقا قانون الصدق . صاحب «التورني جينيرال» بوشعيب . هرع الي وعانقني . انه مخمور :

ـ الله . الله يا رب . أهلا بأستاذي . أستاذ الاساتذة . تعيش وتربي الريش ..

ـ الله يبارك فيك . أين أنت ؟

ـ في الدنيا .. جرسون هات نشرب .

بدون كلفة ، جذب مقعدا وجلس قربي . عضلاته طاغية يبرز تفاصيلها قميص النيلون الأنيق . يعلم الله أين يشتغل . أتاني الجواب من دون أن أسأل . انه يريد أن يفضي الي بكل ما في نفسه . يريد أن يشركني في مسؤولياته ، أن أصدر حكما على سيرته وتصرفاته ، أن أنصحه كأنني قسيس ..

ـ عزمت مرارا يا أستاذ أن آتي عندك لتساعدني . ولكني كنت أخاف أن أضايقك لا سيما وأنا لم أعد كما كنت نقيا . لقد غصت في الوحل الى عنقي ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حكى لي كل شيء بارادة طيبة . حكى لي بداية المأساة . كيف أصبح أبوه بعد رسوبه يستكبر عليه لقمة جافة .. بحثه الطويل المضني عن العمل .. ثم كيف انفصل عن أسرته لينضم الى عصابة أشرار يسطون على متاع الناس .. يقتحمون في حلكة الليل وفي وضح النهار سيارات الغير ، فيلات منزوية ، قرى نائية .. ارتابت نفسي . شعرت بشفقة وخوف كأنني أزاء حيوان مطارد من كل جهة .. صحت فيه مع ذلك :

ـ انت مجنون . كيف تسمح لنفسك بهذه الأشياء . ليس هكذا تحل المشاكل ..

اغرورقت عيناه . يحاول بكل قواه أن يبرر موقفه . أن يقنعني :

ـ أموت يا أستاذ . أليس لي حق في العيش ؟ هذا كل ما بقى لي انني آخذ حقي بيدي .. الله يشهد ، لست راضيا عن نفسي ابدا .. اعطوني فرصتي في العمل . اكنس مراحيضهم اذا شاءوا .. اعمل اي شيء ..

ـ ما شاء الله .. ولكن ليس بهذه الطريقة تحل المشاكل .. ليست الدنيا فوضى . في البلاد قانون . ألم تفكر في العقاب ؟

ـ حالتي أقسى عقاب . لم أعد أخاف من شيء .. قبل أن يقبضوا علي يجب أن يحطموا هذه ، وضرب قبضته على المتكأ . «جيمس بوند» .. صحيح ..

(11)

في صيف هذه السنة وجدته في افران .

كان يتأمل الاسد الحجري . لما أبصرني تقدم نحوي في تعثر واحمر وجهه . طالت قامته ولكنه ما زال نحيفا تبدو على وجهه كآبة غامضة واجهاد . كان لباسه نظيفا أنيقا وكانت بجنبه أوروبية تكبره على الاقل بعشر سنوات ..

ـ أهلا بك .. أستاذ الحسني .. هذه زوجتي هيلينا

ـ متشرف سيدتي ،، مبروك يا عبد الله ، تزوجت خلاص ..

احمر وجهه مرة أخرى ، لقد خمن دهشتي لفارق السن ،

ـ ماذا تعمل الآن ؟

ـ أنا الآن في بلجيكا . ذهبت هناك ضمن اليد العاملة لأجل المناجم وأنهي اجازتي في المغرب .

شعرت بابرة دقيقة تنغرز في شغاف قلبي . قسوة القدر . لو كان على الأقل متين البنية ،، لو كان مثل حركات لهان الامر . يستخرج الفحم من أعماق أرض أجنبية . يتهدد الموت حياته في كل لحظة .

ـ أنت راض عن نفسك ؟

ـ الحمد لله ..

كلامه مقتضب . ما زال يحتفظ بسره . رغم الحياة في أوروبا ما زال كثير الخجل . لن أعرف عنه اكثر من هذا .

اردت ان اودعه ولكنه هم بان يقول لي شيئا . اطرقت براشي لكي لا اربكه . جاء صوته خافتا مترددا .

ـ تذكر يا استاذ يوم سالتنا في الصف بماذا نحلم .. كيف كنا نرى المستقبل ..

ـ أذكر جدا ذلك .. وأذكر انك لذت بالصمت ولم تقل شيئا ..

ـ «كنت .. كنت اريد ان أكون كاتبا » ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الْمَوْؤُودُ

بِأَيْدِينَا قَتَلْنَاهُ ... وَفِي صَمْتٍ دَفَنَّاهُ
حَرَامٌ أَمْ تُرَى مَاذَا ... يُسَمَّى مَا فَعَلْنَاهُ
وَيُقْتَلُ مَنْ يَكُنْ حَيًّا ... وَهذَا قَتْلُهُ مَا هُو
وَمَاذَا كَانَ يَعْنِيهِ ... حِسَابٌ قَدْ أَسَأْنَاهُ
كَأَنَّا حِينَ أَحْبَبْنَا ... عَلَى الْحُبِّ اسْتَشَرْنَاهُ
وَمَا ذَنْبُ الَّذِي يَأْتِي ... وَلَا يَخْتَارُ مَأْتَاهُ
وَلَمْ يُعْرَفْ لَهُ جُرْمٌ ... سِوَى أَنَّا خَلَقْنَاهُ
وَأَنْكَرْنَا خَطَايَانَا ... جَعَلْنَاهَا خَطَايَاهُ
وَلَا أَدْرِي إِذَا كُنَّا ... جَنَيْنَا أَمْ قَضَى اللَّهُ
رَمَاهُ حَظُّهُ الْقَاسِي ... بِحِضْنٍ لَيْسَ يَرْعَاهُ
وَلَوْ وَافَى لَهُ أَهْلاً ... لَقَالَا : مَا أُحَيْلَاهُ
لِنَفْرِضْ أَنَّنَا كُنَّا ... عَلَى رَغْمٍ تَرَكْنَاهُ
إِذَا لَمْ تَرْضَنَا الدُّنْيَا ... فَقَدْ تُرْضِيهِ دُنْيَاهُ
يَتِيمٌ لَمْ يَجِدْ حُبًّا ... أَبُوهُ الدَّمْعُ وَالْآهُ
فَفَارَقَنَا وَلَمْ تُفْتَحْ ... عَلَى الْآلَامِ عَيْنَاهُ
أَتَى بِالْأَمْنِ وَالسَّلْوَى ... وَلَكِنَّا مَنَحْنَاهُ
فَلَمْ نَسْمَعْ لَهُ صَوْتًا ... وَلَمْ نَفْرَحْ بِمَرْآهُ
وَعِشْنَا نَحْمِلُ الْبَلْوَى ... وَنَشْكُو مَا فَقَدْنَاهُ
وَحَلَّى حُبُّنَا حَيًّا ... وَغَذَّاهُ وَقَوَّاهُ
فَتَلْنَا جِسْمَهُ لَاكِنْ ... سَنَمْحُو كَيْفَ ذِكْرَاهُ ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صَحْرَاءُ مَارِسْ

مَأْسَاتُنَا يَاشَوْقَنَا الْمَسْحُوق
أَنَّا حَفَرْنَا الْجُبَّ فِى الصَّحْرَاء
(حَسِبْنَا الاَرْضَ أَوْرَاسَا)
دَفَنَّا الْقُمْقُمَ الْمَخْنُوق
تَلَوْنَا سُورَةَ الطُّوفَان
وَبَيْنَ الْوَمْضِ وَاللَّمْحَة
شَهِدْنَا فَارِسَ الثَّوْرَه
يَضْرِبُ آلأَكْبَاد:
ـ "لَنْ تَسْقُطَ الأَمْطَارُ فِى الصَّحْرَاء"
ـ "لَنْ تُزْهِرَ الأَشْوَاكُ فِي الصَّحْرَاء"
وَبَيْنَ الرَّمْشِ وَاللَّحْظَة
رَأَيْنَا الْقُمْقُمَ الْمَدْفُون
يَلْفِظُ الأَنْفَاسَ فِي آلأَعْمَاق
يَرْسُمُ الدُّخَانُ فِي آلأَجْوَاء
"فَلْيُحْسِنِ آلإِنْسَانُ كَيْفَ يَمُوت!"

\+ + +

مَأْسَاتُنَا يَا وَهْجَنَا الْمَسْرُوق
أَنَّا فَقَدْنَا النُّورَ، مُنْذُ الرَّمْلُ فِي آلأَحْدَاق

مُنْذُ الشَّمْسُ مَغْلُولَة
وَمُنْذُ الْفَجْرُ فِي الزَّنْزَان
عِشْنَا طَوَالَ الْقَحْطِ بَيْنَ التِّيهِ والْعَتْمَه
أضَعْنَا عَصَا التَّسْيَار
كُنَّا نُجَارِي "اللآنَ" وَالْأَقْدَار
نُبْصِرُ الْأَشْيَاءَ مَقْلُوبَة
نُطْلِقُ الْأَسْمَاءَ مَعْكُوسَه
نَقْرِنُ الْأَقْزَامَ بِالْعِمْلاق
سِرْنَا ـ زَمَانًا ـ نَقْصِدُ "الْمِصْبَاحَ" فِي الطُّورِ
(جَفَّ الْمَاءُ فى الْأَكْوَاب
ضَلَّ الرَّائِدُ الْمِصْدَاق)
فَأَيْنَ الطُّورُ يَا صَحْرَاء !!
أَيْنَ الْمُطْلَقُ الْمِضْوَاء !! ؟
أَجَابَ الْهَاتِفُ الْمَجْهُول
ـ "لَعَلَّ النُّورَ فى الْمِشْكَاة"
ـ "لَعَلَّ الذَّاتَ عَلِّيقَه"
ومِثْلُ الْبَرْقِ والرَّعْدِ ،
ـ سَمِعْنَا :
"دُكَّتِ الأكْوَانُ يَاعُمْيَان
أتْلَفْتُمُ الْأَلْوَاحَ يَاصِبْيَانَ"
إِنَّ النُّورَ في الأَوْرَاس"

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إِنَّ الْمَوْتَ في الصَّحْرَاء"
سَمِعْنَا :
"يَاعَيْنُ لَوْلاَ الرِّيح
ظَلَّتِ الأَنْظَارُ كالْمَنْظُور
فلْيَطْعَنِ الإِنْسَانُ دَيْجُورَه
ولْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ أَنَّى يَسِير"

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمد أنقار
محمد السولامي

الأدب المغربي وشعر مابعد النكسة

(*) هذا المقال مأخوذ من ندوة شارك فيها الاساتذة :
محمد أنقار ـ محمد بريك ـ محمد السولامي .
وقد كانت كلمة الاستاذ بريك مقدمة تاريخية للقصة الفلسطينية .

السولامي : أرى أن موضوع ندوتنا هذه يتطلب منا استقطاب نقطتين اثنتين النقطة الاولى نتناول فيها الادب المغربي كقضية أدبية أو كمشكلة قائمة والنقطة الثانية نتناول فيها موقف هذا الادب وخاصة الشعر ، من نكسة يونيو المشؤومة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واترك في البداية الحديث عن النقطة الاولى للزميل الاستاذ أنقار محمد.

أنقار : مشكلة الأدب المغربي مشكلة قديمة وعريقة في التاريخ الأدبي ، لكن هذه المشكلة فرضت نفسها في يومنا هذا بحدة ووضوح ، فرضت نفسها عندما استيقظ المغاربة وأخذوا في البحث عن طريقهم وعن دورهم الحضاري ، فحاولوا أن يبحثوا عن أدب أمتهم باعتبار أن الأدب من أسمى المقومات التي ترتكز عليها الحضارة ، فلم يجدوه لا عند الفاخوري أو شوقي ضيف ، لا عند الزيات أو طه حسين ، لا عند أحمد أمين أو الرافعي ولا عند جورجي زيدان أو البستاني .

ونحن نعرف أن أدب كل أمة لن يستطيع أن يخلق من العدم ، وأن هذا الأدب اليوناني من تراث تلك الامة .

الادب اليوناني مثلا بقي حيا طوال هذه المدة لأن جذوره ضاربة في أرض اليونان وفي تراث اليونان ، بل ان الأدب العربي نفسه استطاع أن يخلد لأنه لم يقطع في أي مرحلة من مراحل تطوره لوشائج والصلات التي تربطه بالارض القديمة وبالتراث القديم .

نحن نعرف اذن صلة الأدب با تراث الحضاري ، ونعرف أيضا أن هذا التراث كيفما كانت قيمته وكميته يعتبر المعيار الذي نفاخر به الآخرين ونتباهى به ، لكن رغم معرفتنا تلك ، فاننا قد حاولنا اليوم أن نختصر الطريق وأن نفترض أو نتوهم الحل للمشكلة القديمة العريقة ... مشكلة الأدب المغربي ووجدنا أنفسنا نكتب قصائد وقصصا ومسرحيات نساير فيها أحدث الأساليب الاوربية في التكنيك ، ان المشكلة متقدمة وان الادب المغربي موجود بدليل ما نقرأه من عشرات القصائد والقصص في مختلف المجلات والجرائد .

أكرر ثانية أن مشكلة الادب المغربي مشكلة قديمة وعريقة وفي التاريخ الادبي ومشكلة اعوص مما قد يتبادر الى ذهننا .

لقد جنى فتح الأندلس على الأدب المغربي القديم ما في ذلك من شك ، وكنا قد وجدنا في أواخر الدولة الموحدية وبداية المرينيين بعضا من النماذج التي تؤكد أن الشخصية الادبية المغربية كانت قد بدأت تتبلور ، وكانت هذه الشخصية الادبية منفصلة عن الاندلس بدليل مما يؤكده كذلك من أن التنافس الذي كان قائما بين شعراء العدوتين ، كان قد ضمن استقلالا في الشخصيات والمميزات ، ولكن الاندلس كانت جميلة أكثر من اللازم ، وكان التاريخ المغربي قد ارتبط بتاريخ الاندلس ، فلا عجب أن وجدنا مؤرخي الادب تبهرهم طرافة حب ابن زيدون لولادة ، وطلاوة صوت زرياب ، وبذخ المعتمد ودلال اعتماد ، بل الأغرب من ذلك أنني وجدت المستشرقة الالمانية المعاصرة هونكه تعجب بالادب العربي فتفرد فصلا للحديث عن الشعر الاندلسي وروعته دون أن تحاول ربط كلامها بالشعر المغربي الذي كان الادب الاندلسي رفيقا أمينا له في معظم مراحله .

ونجد بعض المنصفين من الدارسين يحاولون اليوم أن ينظروا الى الأدب المغربي من زاوية جديدة هي زاوية الأدب العربي ، وكل النتائج التي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

توصل اليها هؤلاء هي أن الشعر المغربي قد بالغ في تأثره بالمدرسة المشرقية ، ففقد بذلك صبغة الاستقلال ، وهذا ما لا يجب أن نسلم به .

انني متأكد من أن الشعر المغربي ، خاصة في عهد الدولتين العظيمتين المرينية والسعدية ، قد استطاع أن يفرض ذاته لا على الصعيد المغربي فحسب ، بل حتى على الصعيد العربي كله ، واستطاع أن يبلور لنفسه شخصية مستقلة ذات اصالة .

لكن هذا التأكيد من جانب واحد لا يكفي ، بل علينا أن نقنع الآخرين بتلك الشخصية المستقلة ، واعتقد أن ذلك لم يتم الا بنفض الغبار عن التراث المغربي القديم ومحاولة تحقيقه ودراسته .

ان هذه الخطوة هي الكفيلة بربط حاضرنا بماضينا ، وبالتالي هي الكفيلة بمساعدتنا على حل المشكلة ، مشكلة الادب المغربي .

ولنترك الآن الماضي لنواجه الوجه الآخر للمشكلة كما تقدمه لنا اللحظة الراهنة ، قلت سابقا ان البعض من الادباء المغاربة المعاصرين ـ والشعراء منه خاصة ـ يحاول أن يقتبس من الغرب احدث الاساليب الفنية بمحاولة لحل المشكلة ، ولكن هذا الكلام لا يفي اولا ان كل من يحاول الاعتماد على الغرب في تكنيكه يكون فاقدا للاصالة الفنية ، ولا يفي ثانيا ان من لا يعتمد على الاساليب الغربية يضمن لنفسه تلك الاصالة بمحاولته السير على النهج القديم .

كلا ، لا أعني هذا ولا ذاك ، وانما الاصالة كما هو معروف قد تكون عند هؤلاء وقد تكون عند أولائك .

واليوم ، وبعد نكسة يونيو ، وجد الشعراء العرب والمغاربة على السواء أن معيار الاصالة قد أصبح هو الصدق الفني وصدق الموقف الذي يقفه الشاعر .

السولامي : أنا أوافق على أن معيار الأصالة قد أصبح هو الصدق الفني وصدق الموقف الذي يقفه الشاعر ، ولكننا لو حاولنا تطبيق ذلك المعيار على الشعراء

المغاربة المعاصرين فاننا سنصادف كثيرا من الصعوبات ، لأنه توجد داخل تلك المجموعة من الشعراء فئات تتباين مع بعضها في الشكل والمضمون والأصالة كالآتي :

1) **فئة الشعراء الشيوخ :** هؤلاء يعتمدون على ثقافتهم اللغوية ، ويعتنون بالأساليب الكلاسيكية دون أن يحاولوا الاهتمام بالمضمون المعاصر ، واذا نحن نظرنا الى الأشعار التي كتبوها بعد النكسة نجد أنها تتوحد لكونهم استعانوا جميعا بالشكل القديم للتعبير عن احساساتهم ، ولان مضامين قصائدهم تلتقي في أن التفريط في الدين هو السبب في الهزيمة وان الرجوع الى الطريق المستقيم هو السبيل الى الانتصار يقول المهدي بن ادريس متوسلا دائيا :

يالاهي لهوت ، عنك وفي ... غلط دائم وعني عفوتا
فاجعل النصر ساكنا بيني ... وحشائي، فحبي خلقته ورزقتنا
قد طفى واعتدى وهدد بالمسـ ... ـكر زمان ومركه قد عرفتا
أنت تنجي ، وفي رضاك نجاتي ... أنت تهدي وفي هداك أقمتا ..

ويقول شاعر آخر :

القدس بيت الله قبلة ... قد دنست بعصابة الاوغاد
تلك المحارب زالمنابر ضمخت ... بدماء من رغبوا في الاستشهاد
لهفي على الاسلام يهدم ركنه ... من مجرمين مدنسين أعادي
الروضة الفيحاء حيث « محمد » ... والبيت في البلد الحرام ينادي
فبراءة الاسلام منه براءة ... تبقى على الاحقاب والابـاد

وهناك نماذج أخرى متعددة كالثورة الكبرى « التواتي ، والقدس للاجاي، والجولة الكبرى » للحلوي وغيرها كثير ..

والملاحظة العامة التي نخرج بها عند دراسة هذه النماذج هي أن أصحابها قد تناولوا القضية على انها شيء مفصول عنهم ، فهي اما قضية تاريخية غير مرتبطة بمصيرهم ولا بمستقبلهم ، أو انها قضية دينية ، فالقدس بيت الله ومهد الرسول ، ويجب أن نستنكر ما فعله به العدو ، وان ندعو الله أن يغفر لنا أخطاءنا وذنوبنا ، وأن يزيل عنا هذا الغضب بارجاع القدس .

ان انحراف أصحاب هذا الاتجاه عن مهمة الشعر الحقيقية جعلهم يشبهون بعضهم مع تفاوتات بسيطة جدا .

2) **فئة الشعراء الشباب :** وهؤلاء اعتمدوا على مواهبهم الذاتية ، وعلى الاستفادة من الأساليب الغربية من استغلال للرمز والاسطورة والفلسفة والطرق التعبيرية الجديدة .

ولقد احتضنت هذه الفئة النكسة كقضية ارتبطت بها وراحت تحاول التعبير عنها بطرق تباينت من شاعر لآخر .

ولعل السبب في تباين هذه الطرائق هو أن شعر هذه الفئة ـ كما قال الاستاذ المجاطي ـ ليس وليد تطور تاريخي على مستوى القطر ، بل هو وليد تفاعل مع التيارات الشعرية المختلفة في الاقطار العربية الأخرى .

وعلى كل ، فهؤلاء الشعراء التزموا خطا فكريا واحدا جعلنا ندرجهم مجتمعين رغم أن منهم من عبر بوضوح عن القضية ، ومنهم من جنح الى الرمز « فاين دفعة وهو واحد من الذين جنحوا الى الوضوح يقول في قصيدته «مكالمات صهيونية» :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آلو جولدا
صمت العرب
طوفي بالغرب مهرولة ، متسولة
صمت العرب
ما كان الصمت بعادة من
أقصى ما يصنعه الخطب
آلو جولدا
سكت العرب
كاسي لا أوشك أبصرها
صمت العرب
ويكاد يجلجل في أذني
من سيناء زحف خبب ..

وهي قطعة تصور حالة الشاعر المغربي في الظرف الحرج نفسه ، حيث ثار ثورة شاملة على كل القيم ، وتعمق احساسه بالفشل ، فلم يجد سوى السخرية من العدو يمضغها وهو يغلي بالوعيد والتهديد .

فالشعور اذن شعور مبهم ، واعماق الشاعر في هذه اللحظة الصعبة ترغى وتزيد بحب الانفجار ومواصلة الحرب حتى النهاية .

ولعل عبد الرفيع الجوهري هو الآخر بقصيدته «خامس يونيو» يعبر عن نفس الشعور :

خامس يونيه
قلبي بيدي
نتر « اوباش في بلدي
ولدي »
العار يشوهني
ولدي »
اركب سفني
انفخ صورك
واجمع صحبك
واذا جبنوا
قاتل وحدك
واذكر طارق
احرق سفنك
كي لا ترجع
احرق سفنك ..

ولكن هذا الشعور يتحول بعد أن امتد الزمن ، ومرت على اللحظات الاولى فترة كافية بأن تجعل النفوس الثائرة تهدأ ، وبعد ان توضحت معالم الطريق أمام الشاعر المغربي فأخذ ينظر الى القضية من كل جوانبها بأناة ، وحاول تصويرها كما يراها على صفحة الواقع دون اندفاع و لا تهور .

فالشاعر عبد الكريم الطبال يرى أن النكبة ظلت شيئا أكبر من أن يتصور،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومأساتها بقيت شيئا غير معبر عنه وغير محبشم الى أن كتب « درويش » قصائده فجسمها وصور هولها بتصويره لحالة الانسان الفلسطيني الذي يحيا المأساة يوميا ويعاني منها كل لحظة . فدرويش عند شاعرنا الطبال بمثابة الصوت الذي يأتي فيصمت كل صداح ، ويخرس كل قيثار ..

لقد وجد الشاعر الطبال مشاعره واحساساته تنبع من شعر درويش فراح يعانقه بحرارة منشدا :

النخل والزيتون والادواح تسألني
عن الصوت الذي يأتي
فيصمت كل صداح . ويخرس كل قيتار .
لأن الصوت في الاوراق يمشي
في الظلال يسيح . في زهر الثمار .
يطل كالاشواق
من احداق أم في انتظار الفجر والصلوات
جروا ابنها في الليل
من أحضانها ، من بيتها المعجون بالصبوات
بالاحلام والآهات والذكرى
بحب الزرع والاشجار والانهار والظل ...

والشاعر محمد أبوعسل يصور من جهته رفض الشاعر المغربي للتهدئة، وفقدانه للثقة في مجلس الامن وما شابهه ، لأن الاعتماد على مثل ذلك والجلوس في انتظار مبروك لم يعد مجديا ، ولان الحقيقة تفرض نفسها وهي تنبع من وسط القدس :

غارة الاعداء في عرفي شهادة
انني أقوى من الخصم اراده
مجلس الامن الذي يحمي فضائي
لم يعد فيه رجائي ..
ذاك شيء يجعل النفس رقيقة
نحن ماعدنا هنا نزرع وردا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه التدس التي علمت الدنيا الحقيقة
عـادت اليـوم مقـابر
كـل شبـر صـار لحـدا
لو حفـرت الارض تلقـى جسم ثـائر ..

ان هذه النماذج التي ذكرناها قليل من كثير ، وهي تصور مجتمعة كيف نظر أدباؤنا الشباب الى القضية وكيف عبروا عنهـا ، ونظرتهم هذه وتعبيرهم هذا يعدان في نظري بمثابة صورة تعكس بحق نظرة الانسان العربي في هذا الركن من بقاع العالم العربي الكبير .

ولئن كان هؤلاء الشعراء قد عبروا تعبيرا واضحا عن احساساتهـم ومشاعرهم فان هناك شعراء آخرين يسيرون في نفس الاتجاه وينتمون الى نفس الفئة ، الا أنهم اختاروا تعابير جديدة ، وسلكوا طريقا غير مبـاشرة للتعبير عن مواقفـهم ،

فابن ميمون ، وهو واحد من هؤلاء ، يتحدث عن القضية في اشعـار ألبسهـا حلة من رومانسيته وراح يصور عبرها حالة الانسان المغربي المجبر عـلى أن يتفرج ، وأتواجد دوما الى أن يكون وسط المعركة حاملا رشاشـة لاتعـرف كيف تميت الجـوع :

انعى لكم جيـلا آخـر
مـرميا فـي مهوى الغـربـة
لا نسغ الارض ولا تربـة
مشدود العيـن الى الشـاشة
ميـدان البطل المصنـوع
مجنـون الحـلم برشـاشة
لا تعرف كيف تميت الجـوع
أرثى لك يـا جيل البـطل المخـدوع ...

واحمد المجاطي ، وهو حامل لواء الشعر الحديث في المغرب ، يصور لنا الشاعر المغربي وهو يحترق من الداخل ، وقد امتلأ حقدا وثورة وظمـأ

الـى كأس من كؤوس الردى يشربها هناك مع اخوانه . ان مصيبته هي أن ذلك مبتغـى اصعب ، ولا يعر ف سبيل يسلكه للوصول اليه :

رأيتك تدخنين الريح تحت عرائش العتمة
وتلتحفين صمتك ، خلف أعمـدة الشبابيك
تصبين القبور وتشربين ، فتظمأ الاحقـاب
ويظمأ كل ما عتقت من حسب ومن أكواب
ظمئنـا والـردى فيـك
فـأين نمـوت يـا عـمه

اننا لو تجاوزنا البناء العـام ، لهذيـن النموذجين ، الى المضاميـن للقينا أصحابهما يستعينان بكثير من وسائل الشعر الحديث كالاعتماد عـلى الرمز والتغلغل الى أعماق النفس «من أجل تحقيق اللقـاء المثمر بين ووجدان الجماعة الـتـي ينتمون اليهـا» .

وهناك اتجاه آخر من اتجاهات شعراء هذه الفئة مثل محمد زفزاف خير تمثيل بقصيدته «الرأس والقبعة» . هذا الاتجاه هو التمرد المطلق والانطلاق بعد الثورة على الشكل والمضمـون في وقت معـا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد جنح زفزاف الى شعر منثور صب عبره سخطه وغضبه ، ونحـن رغم ايماننا بما في القصيدة من مبالغات ، فاننا نقر بأنها تعد ثورة عـارمة يدعو فيهـا الشاعر الى الالتصاق بالارض والنزول من الابراج ، لان في الارض يولد الانسان ويحيا ، ولان هذه الارض هي مسرح مأساته وضياعه .

ايهـا الشعـراء
يا أصحاب الأصائـد المتفـاة
يـا تمـاثـيـل مـن التبـن
أتحـداكم جميعـا
واكتب قـصـائـد
محتـرقات من البلاستيـك
من الميكا ومن جـذوع الاشجـار

أهشم القوافي
أدوس الخواطر المصبوغة
بدماء مفتعلة

3) وهناك فئة أخرى تنقصها الاصالة ، ونسميها مجازا باسم الشعراء. هذه الفئة ما زالت تبحث عن الطريق ، وهي متأكدة من أنها تجد الطريق ، لكنها رغم ذلك تلح في الكتابة .

لقد قالت هذه الفئة كل ما في جعبتها من غزليات وتحولت بقدرة قادر الى فئة أثورية ملتزمة بقضايا المجتمع ، وأخذت تردد بخطابة واضحة ما تردده الاخبار اليومية .

لقد حصد أصحاب هذه الفئة قمحهم عشبا ـ كما يقول منذور ـ دون أن يصبروا حتى ينضج وتستوي سنابله .

ان على شعراء هذه الفئة أن يصبروا بعض الوقت ، وأن يثابروا على القراءة الجادة المستمرة لاننا بحاجة الى تثقيف أنفسنا والى التشبع بمختلف العطاءات كي تكون لنا الاصالة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبعد ، فقد كان باستطاعتنا أن ندسم الشعر المغربي المعاصر على أساس الشكل كما فعل بعضهم فقالوا بوجود تيار الشعر الكلاسيكي وتيار الشعر الحر ، ثم الثيار الثوري، ولكني أعتقد أن مضمون التجربة الشعرية الصادقة ، بل والتجربة الفنية عامة هو الذي يفرض الشكل المرقف والاطار الناجح .

أنقار : أود أن أنفذ من هذه الحقيقة ـ حقيقة التجربة الصادقة وفرضها للشكل الموفق ـ الى القضية الرئيسية في هذه الندوة ، قضية النكسة الاخيرة وموقف الشعر المغربي منها .

« النكسة في رأيي مصطلح صغير نغطي به جراحا اليمة لم يستطع حتى الزمن أن يمحوها .

النكسة بكلمات مفضوحة وصريحة هي هزيمة عسكرية منى بها العرب نتيجة لأخطاء وقعوا فيها .

والبديهية المسلم بها هنا هي أن الشرق العربي عندما كان يحترق – بعيدا – طوال الايام الستة تحت قنابل النابالم ، حينذاك ، كان الانسان المغربي هنا – ثم الشاعر المغربي – يحترق باعتباره أولا وقبل كل شيء عربيا .

والحقيقة الفنية التي يجب أن نرصدها هنا لا في الشعر المغربي فقط بتياراته المختلفة ، بل في الشعر العربي كله ، هذه الحقيقة هي أننا وجدنا الشعراء العرب من المحيط الى الخليج بعد النكسة يتشابهون من حيث صدق التعبير ، وان كان هناك بالطبع تفاوت في الدرجة الفنية . كانت النكسة قد ضمنت تجارب شعرية صادقة ، فوجدنا معظم شعراء العربية يصابرن بالذهول شأنهم شأن الانسان العربي ، فيكفرون بكل شيء . كان الكفر بعد النكسة عاما : الشعراء الكلاسيكيون والطلائعيون والصاعدون كلهم ينعون ويكفرون بكل شيء .. بكل القيم دون تحديد .. يكفرون حتى بقيمة الانسان العربي نفسه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان الموقف بعد النكسة هو الكفر الكبير والأمل الصغير ، ولكن الزمن كان كفيلا بأن يوضح الرؤيا وينير الطريق و حدد أهداف الكفر ودروب الأمل . وبعد انقشاع السحب ، وهدوء العاصفة ، وازدياد الموقف تحددا ، كان حينذاك فقط ، في استطاعتنا أن نلمس بوضوح دور كل فئة من الفئات الثلاث التي حدثكم عنها الاستاذ السولامي .

هذه الفئات هي التي أرى أن معظم الشعراء المغاربة المعاصرين ينسبون اليها ، منظورا اليها من زاوية اصالة المضمون . فأنا أوافق الزميل السلامي على أن هناك فئة من الشعراء تحاول أن تكتب اشعارها بالالم الظاهر وبالدم الخفي الذي يقزف من قلب الانسان المغربي تجاه نكسة أخيه في المشرق ، فجاء المضمون صادقا دافئا عندها .

وهناك فئة من الشعراء تكتب عن النكسة باعتبارها قضية تاريخية ..

قضية لا علاقة لها الا بالدين فقط . ان الوشائج التي تربط مضمون هـــؤلاء بقصـــائدهم شبه منعـــدمة .

وهناك فئة ثانية من الشعراء تشوه المضمون عندها ـ الى جانب الشكل ـ تشوها يسيء الى الانسان المغربي والى القضية العربية نفسهـــا .

وبعد ، ان النكسة كما قلت ـ كلمة بسيطة تغطي جراحا عميقة ، فعلى الشاعر المغربي لكي يعري حقيقة تلك الجراح ، عليه أن يضع نفسه دائـــما فـــي مـــوقف .. موقف النكسة .. موقف النفس المصدومة بعنف : « ان وضع أي انسان في موقف يكشف عن جوهر ذلك الانسان ، ان الانسان في موقـــف هو الانسان في لحظة حـــاسمة .. في لحظة عري » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أحـــوال

1

المساء يسترخي على المدينة متعبا . وأشعة شمس عجوز تستلقي على الحيطان كالحناء . وأصداء آخر النهار تنبثق غائرة . **وما الجدوى في أن أقول انـي حـزين هذا المساء . وهو مساء كغيره أنحدر اليه : دوامة في نفسي من بقايا النهار،** وذكرى من هنا وأخرى من هناك ، وشيء من الأحلام ينعش النفس. النافذة تؤدي الى اصوات القطط تتشاجر ، وتجامع .. وكلاب تنبح للاشيء . وسأخمن أن الحجرات المغلقة ترتفع فيها الارجل الى السقف ، ويكون الأنين، والعـرق . لن أطفيء النور وأخرج رأسي من النافذة لأتأمل النجوم ، فهي كما هي ، والقمر كما تعهد . وسيكون شيء من الأحلام لتنتعش النفس ، ولتكن من الصبا ، فبعد الصبا صدئت النفس واعتادت ولا جديد . **أحب وحده جديـد .** ولم نعرفه الا حين الصبا ، وما عداه فالليل بمواء القطط ، والنجوم ، والنهـار باهت ، والمساء كما ترى منظر قديم . وقيل ان بآخر الدنيا شمس منتصـف الليل ، يفرح بها الناس ويسكرون . سنشد اليها الرحال يوما ، لنـرى ... لـنـرى ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

2

الشراب ، والبار الغالي الأنيق ، وصاحباك اللذان اشريا بسرعة . الأنوار صنعت لتوحي بانغوار الضوء والعتمة والالوان الخافتة . ويتغلغل الشراب فـي نفسك ، فينشر عليها الهدوء ، حتى لتكاد تبكي .. فأنت تشعر فجأة أن أحـداً لا تعرفه قد ظلمك . ويوم الجمعة بعد الظهر انتظرتها أمام نافورة البلدية . أنت رائعة ، والشعر الفاحم يستلقي على الظهر . وسألت الى أين نذهب . خطفتك لزوجك سيدتي ، ولن نقف الا في المحمدية . فندق « ميرامار » الفخم ، والغرفة ذات الرياش ، والشراب الغـالي ، وحين يصفعك الجمـال أنفق ولا تبال ...

والشفتان لا تشبع منهما ، وضحكتها وأنت بها سعيد . صاحبك يسألك ما العمل ؟ أحب « لورا » وهو أب وزوج ، وما عسى أن تقول ؟ جبال سوس يكسوها العشب ، واللوز أزهر ، وأشجار « أركان » تكسو الجبال ، تدور اذا دار الجبل ، وتكون كبقر أسود يعدو اذا الجبل استطال . مع صاحبك و « لورا » فوق سطح بيت « باها » تشربون الشاي . ثم تطأ قدم نصرانية هذا المكان من قبل . سوس الحبيبة والناس كما هم ، كالأشياء من مئات السنين . و « باها » يحدثكم عن رحلته الأليمة الى مدينة وهران يطلب العمل . كل صباح يحمل شمعة الى ولي بالمدينة ليجد شغلا . وذات صباح ، ذهب ليبول على الولي ويعود الى الدوار ... وقال انه يموت هنا على مهل ، كما يموت نبات « تيكيوت » . صوت من أسفل يدعو « باها » أن ينزل ليرد البعير عن لوز الغير . ويقول باها ان البعير يشغل الناس هنا طول النهار، فيذكرون اسمه أكثر مما يذكرون اسم النبي ... لو أبدل النادل بيانو « النجتون » وأطلق دورا من سوس الحبيب ... أصوات رجال قوية ترد عليها أصوات نساء ترق ، ترق ... والطبول القوية ، والعنف . وتعصر الكأس في يدك ، فشيء ما قد ضاع منك . وليخرس صاحباك ، فقد طال حديثهما عن كيف ينبغي التحايل على الضرائب . « ضحكت لا حتى بانو الاسنان » ، كنت تغنيها وأنت تعود بسرعة . وقالت صاحبتك لو قلبت بنا السيارة لقتلني زوجي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

3

وأعطنا شيئا غير العناء ، فهو بالمدينة كثير . ويوم حدث جديد كان زلزالا . هرب الناس مبتعدين عن الحيطان ، وناموا في العراء . الا قدماء المحاربين ، فعندهم ذكريات تختلف: بلاد الالمان والشام والهند الصينية وخوارق الحرب . العسكري القديم في المدينة الصغيرة مستشار ، فهو يعرف الكثير . والعسكري القديم يعقد عمامته منظمة ، وينصح الناس في عنف . وبلواه أنه حلم حلما من الأخطار والنساء والبلاد الكثيرة ، عاد منه ليقبع في المدينة ينتظر مواقيت الصلاة . تبلى حيطان الدكاكين ، فيدعو الناس « المحجوب » ليبيضها في أناة . يتشقق البناء القديم بالمدينة ، فترفع الدعوى على المالك ليقوم بالاصلاح . وأين سمعت حكاية المؤذن ، الذي مل أن يصرخ بالاذان كل يوم على طريقة واحدة ، فغيره ذات فجر ، فاستيقظ الناس ليرجموه ...

4

اشتد الحر هذا النهار من سبتمبر ، لا كالايام السالفة . وصعد السحاب فغطى السماء . وقال الناس ان المطر سيهبط . ولننتظر أول أمطار العام . ها قد دار العام اذن ، وعزم فلا تمضي مع الزمان ، ولا تمضي نحو الهرم . أول المطر يسقط على الرمل العطش ، فيملأ خياشيمك عبير الارض ترتوي لأول مرة . ومن غير مقدمات ، هبط المطر على الاشياء ، فتحول المنظر . عبث الطبيعة العنيف الى الكهوف . ها « سيبليوس » بنغمه المستدير الغامض ، النغم يدور كزوابع الثلج ، ثم يهدأ كالصمت ، كصمت الثلج يمتد في مدى ابيض حتى الأفق . أصداء بلاد الشمال .. أنهكتني يا « سيبليوس » ولا أقوى على سر الشمال : الغاب الحالكة ، والثلج ، والعيون الزرق ، وكل شيء مما لا نجده عندنا . افرح اذ أجد اللحن صديقا لنفسي ، فأقول لن تبقى غرباء اذن ونحن نحتضن نغم أهل الشمال . الأغراب يتآلفون بالنغم . وما عداه حمل الخلف . النغم وحده يقول ولا يقول ، وينتشلك من أن تقول أي شيء لاي كان، ويذلك من أصداء ذهارات غبراء . أحب شمال الارض يا «سيبليوس» . الهجرة اليه فرض على نفس علاها الصدأ. ذاكر ذلك اليوم «بسنايبة» . النافذة الرسمة تطل على مدى الثلج ، والصالون الفخم و «البيانو» صامتة في سعادة تنصب اليك يا «سيبليوس» . الرياش والجمال ولولا بعض أشجار سوداء لامتدت الارض بيضاء حتى الافق . «سيبليوس» يعمر الصالون ، فأقول ها أنذا وجدتك في مشتاك أيها الحبيب ، وبلاد الشمال كالحلم الممتع ، وقلت آنذاك انني سعيد .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمد زفزاف

الحصـــان البشري

ظلت رجلاه ممتدتين الى أسفل كقطعتـي خشب . شـيء خفـي لاارادي يحركهما . تحت الحذائين كان ماء البحر المصطخب يتكسر على جمود ثابت للاحجار . ما تزال الرجلان تتحركان في الهواء . وعلى بعد 200 متر يبـدو أشهب كجزء من الحجر الذي يجلس عليه . لا فرق ،، كل شـيء رمادي وناتيء. حـتى الماء المصطخب كان يبدو لأشهب رماديا رغم زرقته التي تستحيل الى بياض ناصع عند نهاية المسافة بين الماء والحجر . عدة أشكال مرسومـة في الفـراغ . قـدماه تتحركان وترسمان بعفويـة هـذه الأشكال الغريبة التي لا تجوز عليها حيلة الهندسة (مثلثات متشابكة .. دوائـر .. شبـه ـ منحرفات ،، مضلعات .. اقواس واوتار ..) وباقي الأسمـاء الأخرى التي تعلمها فـي المـدرسة وهو صبي . أمسك بقطعة حجر صغيرة .. حولها من يد الـى أخرى بخفة وبسرعة . ثم تساءل ما عساه يفعل بها . لم يكف نفسـه عناء الاجابة . ألقى بقطعة الحجر في الهواء وتلقفها بقدمه اليمنى فصوتت بخفوت . تشـمم رائحة المكان . لـم تكن الرائحة عادية . جثث الأسماك مـا تـزال تتراكم هنا يوما عـن يوم . فـهو كلما جاء الى هذا المكان وجد أن الـرائحة تزداد حدة ، وأن هياكل هذه الحيوانات الضعيفة لا تنقرض وانما تتكاثر في مدة وجيزة . أكوام من عظام الأسماك ، ورائحة حادة ، وقطط متوحشة وأشهب ينظر في الماء. ينظر بامعان وقد تدلت رجلاه بتعب . لم يمش كثيرا ولكنه تعبان . انه يـحس كما لو أنه تمشى كثيرا . ففي أسفل قدميه تنمل . رائحة المكان نفاذة وحادة .

ونظر الى الصيـادين المنتشرين على حافة الماء ، كان بعضهم قد توغل، وكان البعض على السور الحجري وقد تدلت من الايادي سنارات ، والسلال التـي تنتظر أن تملأ متشابهة الى حد ما (صفرة مشوبة بسواد ، زيت كـبد الحوت ، مع الطين ، مع القصب) وتدلت قدماه ، وازدادت حـركاتهما فـوق

المـــاء . نظر بوجه السماء ، وتمنى لو كانت له سنـــارة . لماذا لا يشتـــري واحـــدة ؟ ! لمـــاذا لا يأتي الى هنـــا ويمـــارس مـــهنة « شريـــفة » ؟ هـــؤلاء الصيادون لا يصطادون كثيرا من الأسماك . ورغم كل شي فهم يعيشون احسن منـــي . ثم ان وراء كل سلة عائـــلة كبيرة العـــدد يذهب أبناؤها الى الـــمدرسة والمستشـــفى . وأنا ؟ 19 سنـــة ، لا دراسة ولا عمل . كانت آمالي كبيرة ذات يـــوم ،وكنت أود أن أصبح شيئـــا مهما وها أنـــذا أصبح لا شيء . ومـــ زالت قـــدماه تتحركان وقد انحنى قليلا ينظر في المـــاء . تبدو ظهره بمرونـــة وشكل قبة فرق السور الحجري المتوغل في البحر . رفـــع رأسه واستعـــاد وضعـــه الأول ، ثم جذب قدميهواستـــدار ، بحيـــث أعـــطى ظهـــره للمـــاء . أصبحت البيوت في مواجهته ووضع يديه على ركبتيه ثم حولهما وأخذ يتارجح على عجيزته أمام ـ خلف ـ أمام ـ خلف ـ أما م ... كان بيتهم الصغيـــر لا يبعد عن المكان الا بمسافة 300 أو 400 متر ،، لقد استيقظ مبكرا هذا الصباح. وعتقد أنه سيجد أباه نائما اليوم وأنه استيقظ قبله ؛ لكنه لم يجده . يقال ان أبـــاه يستيقظ قبل الفجر ولا ينام الا قليلا . ان سكان الحي يعرفون ذلك عنـــه ويتندرون به ويدخلون أبا أشهب في نكتهم اذا كانت الحكتة تدور حـــوادثهـــا في الصباح . وشد بكل قوة على ركبتيه ، وأصبح مركز الثقل في عجيزتـــه . امـــام ـ خلف ـ امـــام ـ خلف ـ امـــام . كانت البيوت قصيرة وصغيـــرة جـــدا . لقد حصلوا على بيت منها برخصة امتياز من طرف مسؤول . لأن أباه من قدمـــاء المحاربين في صفوف الجيش الفرنسي ، وهو اليوم يستيقظ مبكرا ـ لا ليذهب الى الصلاة ـ ولكن ليذهب الى مكان لا يعرفه أشهب (أغلب الظن أنه يذهب عند ولد عيشة ليشرب الحريرة وليدخن سبسيا أو سبسين ، قـــال لنفســـه .. وكانت الرائحة منتشرة في الفضاء ، تزداد حدة ولزوجة ، بـــحيث شعر أن عملية التنفس أخذت تعسر عليه . كان السور الحجري قد فقد لونـــه الأصلي وأصبح أســـود . ودعك أنـــفه ، وتأمل اصطفاق المـــاء واستـــمع له . صوته خاص شبيه بصدى الصفعة على قفا عريضة . وتابع استقامة ظـــهر سانيه بنظراته المتراخية . وقال لنفسه انه يجب ان يعمل أي شيء . ولـــكن ماذا يفعـــل ؟ في كل صباح يأتي الى هنا بلاجدوى . ونظر الى الصيادين الذين أصبح يعرفهم الواحد بعد الآخر. عباس،حسين،بوضربة والآخرون الخارجون من دائرة وعيه . وما زال يتارجح أمـــام ـ خلف ـ امام .. الخ . وفك يديه عـــن

ركبتيه ووسع بينهما . دخلت كمية من الهواء الى الفجوة بين ساقيه وأزعجته فوقف ونظر في الماء البعيد . ومد يديه وتمركز في الفضاء فأصبح كالصليب . تثاءب ثم رجع الى الخلف . وفكر أن أباه قد يكون رجع الآن من جولته الصباحية في المدينة . ومضى يتثاقل والشمس تضرب رأسه بالحاح . وأحبها ومضى . قال : أشهب : كنت يجب أن تعمل شيئا. (في صباح مثل هذا، ذات يوم ، وجد نفسه خارج الثانوية يبكي بحرقة . طردوه لأنه اشترك في اضراب . قالوا انه كبير ، وطردوه ولم يطردوا الآخرين . ولم يكن وحده هو الذي أضرب . أبوه لم يكن يشتغل ولكنه يتقاضى راتبا شهريا بسيطا . وعندما علم بطرده قال له : مزيان . وكرر : (مزيان ، مزيان . واكتفى بذلك ونحاه جانبا وخرج) . كانت الشمس تضربه في الرأس ، وتضربه في القفا ، وتضربه في العينين ، وتضربه في كل شيء . وغاصت قدماه في أكوام السمك وفي الهياكل العظمية .

عبر السور الحجري الى حسين وجلس الى جواره بعد أن سلم بالقتضاب ونظر في سلته . دلى حسين يده الى البالنا فوق رأسه ونظر في الماء . كان يجلس القرفصاء ، وقال الأشهب : ـ أمس كان أحسن من اليوم . انظر .. سمكتان فقط منذ الصباح .

ونظر أشهب ولم يقل شيئا . فطالما ثم بحث في جيبه عن شيء لم يجده . انه يجلس هكذا دائما حتى يحين وقت الغداء . فمنذ أن طردوه وهو يبحث عن عمل ، غير أنه لم يجد . لم يكونوا يسألونه حتى عن مؤهلاته . ببساطة كانوا يرفضون . وفي أذهانهم ـ كما اعتقد هو بذلك ـ أن هذا شيء غير ممكن (ـ ماذا ؟ ! ـ العمل .. ومسح كفيه في بنطلونه وقال باختناق الحسين :

ـ هات واحدة ..

وقال الآخر :

ـ فتش تحت السلة .

وفتش وأخذ يدخن بشوق ، وهنا ، لم يعد يسمع اصطفاق الماء . لأنه ابتعد عن السور .. مجرد حفيف بسيط شبيه بحفيف الاوراق يدخل في احساسه . وشعر أن طاقات تلج في عضلاته كلها . طاقات تعبر رعوقه وتنغرز في اللحم والدم والاعصاب . أحس أنه قادر على كل شيء في الوقت الذي

لا يقدر في على شيء . ويشعر أنه قوي كالحصان في الوقت الذي ماتت فيه قوته البشرية وتلاشت . وامتص السيجارة ونظر في الماء البعيد الأزرق ، واستمع لحفيفه . وأبصر الباناما فوق رأس حسين وهي تتحرك تحت ريح خفيفة . وراودته هذه المرة أيضا فكرة أن يشتري قصبةوسلة و يأتي الى هنا فيصطاد كما يفعل الآخرون . غير أنه لم يكن يعرف ما الذي يمنعه من ذلك ، هل هو الكسل ؟ هل هو الاحساس بالعظمة أم الاحساس بالتفاهة ؟ لم يكن يعرف ـ كيف لي أن أعرف . أنا لم أمسك بقصبة في يدي طيلة أيامي الماضية . ثم ماذا تستطيع أن تفعل سمكتان اثنتان ؟ ان ثمنهما لا يساوي ثمن خبزة واحدة أو سيجارتين . ودخن بشوق . واجتر كتلة من الهواء ، عبرت القصبة الهوائية واجتازتها الى الرئتين فانتفختا ثم انبسطتا ببط . ونظر في الأسفل بين قدميه . وقال له حسين الذي كان يهز قصبته هزات خفيفة .

ـ ماذا يفعل الأب ؟ (ولم ينظر الى أشهب)

وانهمك هذا الأخير في تأمله ، وبعد لحظة صمت ، خرجت الكلمات من أنفه :

ـ كالعادة . خرج هذا الصباح مبكرا ، وسوف يعود الى البيت وقت الغداء .

ـ ماذا يقول لك ؟ هل ما زال يمرمط كالمعتاد ؟

ـ نعم . هل تعتقد أنه سيتغير ؟ انه يمرمط ويمرمط بلا انقطاع . ويقول انه حقق أمجاده . وأنا ؟ ماذا فعلت ؟ لا شيء . ويقول ـ أنت تعرف ذلك ـ أنه استطاع أن يهيء لنا بيتا ولا كنا نسكن الآن في بيت قصديري ، هناك ، بضاحية المدينة .

وصمت أشهب . وحك سرواله بأظافره ، كان يحاول أن ينتزع طبقة الأوساخ الملتصقة بالسروال ، ولكنه لم ينجح في ذلك . ونظر في حذائه المصنوع من القماش الأزرق . لقد بدا يهتريء ، وأخذ لونه يستحيل ويبيض بفعل الشمس والمطر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان هناك أطفال تتفاوت أعمارهم ، يقفزون فوق السور الحجري ، عبر الماء الأزرق المصطفق ، وقال حسين بنغمة خاصة وحادة :

ـ أنا قلت لك .. أبحث عن جواز سفر .. كلهم ذهبوا .

قال أشهب :

ـ أنت لا تعرف اي شيء . لذلك فانت تطلب المستحيل .

ولم يتكلم حسين . واستمر ينظر في رأس قصبته ، وحمل كفه الى رأسه . فسوى الباناما المصنوعة من القش . وصمت زمنا يسيرا . كانت قدما أشهب تغوصان في الأرض ، ورائحة المكان تجتاح أنفه وتقلص رئتيه . وعلى بعد أمتار من اليمين ومن اليسار كان الصيادون منتشرين . فاشتالت في رأسه من جديد فكرة اشتراء قصبة . ولكنه توقف وفتح فمه ليتثاءب وقال :

ـ هل تذهب ؟

ـ لا .. لم أصطد شيئا .

وعبر المكان ، ولم يعد يسمع للماء أي صوت . توقف عند حافة الطريق حتى تعبر السيارة القادمة من اليمين ، تقدم الى الامام ثم تأخر بسرعة كما لو كان سيسقط في هاوية سحيقة . وتوقف بصلابة على حافة الطريق . نظر الى الوراء ثم الى اليسار . ورأى فتى وفتاة في سيارة وهما يتكلمان . قال لنفسه : « انهما محظوظان » . يمكن أن يكون أبوه قد وصل الى البيت . فجوعته الصباحية تنتهي وقت الغداء . فبقدر حرصه على الاستيقاظ مبكرا ، بقدر حرصه على حضور الغداء ، يوميا ، قبل أن يعد . سيجلس أمام أبيه وأمه وأخويه الصغيرين اللذين يعودان من المدرسة في وقت واحد ، وسيأكلون جميعا في صحن واحد طعاما خاليا من البروتونات . وسيستمع ، كالعادة ، الى أبيه وهو يمرمط :

ـ (من فعل هذا ؟

ـ فلان ...

ـ مزيان ...)

ولا يضيف شيئا . يقول : مزيان ، ويسكت ويحلق بعينيه في البئور على وجه الجدار ويستمر في الأكل . ولا يتصرف الا باعتداد الجندي المنتصر .

ومع ذلك فأشهب لا يهابه بقدر ما يستاء من صوته القبيح ، وعباراته التي تخز. أنت كالبغل . يجب أن تعمل شيئا . من قال لك : أضرب ؟ لقد طردوك وتركوهم لكي يحصلوا على مراتب عالية . قالوا انك كبير ومسؤول قل لهم : لا ، لست أنا .لذي نظمت الاضراب . ويصمت ويأكل . نفس العبارات ونفس التجهم في الوجه ، ونفس التجاعيد على الجبين .

اجتاز أشهب الطريق . كانت أفكار معتادة تثقل رأسه : العمل والاب وأخواه وأمه . وكان هناك شيء آخر يشغل تفكيره . لم يكن أحد آخر غيره يعرف هذا الهم : علاقته مع فتاة ما تزال تدرس .. الآن ، وبلا أدنى لطف ، أصبح يعاني ويعترف بقساوة الحب .لمستحيل . كانت هناك عدة وعود صادقة . الزواج والأولاد والسعادة . غير أنه أخذ يشعر بتلاشي الاحلام في الهواء . وشعر أكثر بمرارة الواقع . فالوظيفة أصبحت اليوم احدى .لمستحيلات ، والحصول على عمل صبح شيئا مستحيلا كذلك . ان الانسان لا يستطيع أن يبني نفسه من غير وضعية اجتماعية تميزه كما تميز الآخرين . لكن ما الذي يميزني أنا اليوم ؟ لا شيء . عاطل معترف به من طرف الجميع ، وهذا لا يعطيني أي تمييز . وشعر أن قدميه تخونانه كما لو كان مقدما على عملية اجرام غير مبيتة . سوف أحاول ان ابكي بمرارة عندما أخلو بنفسي . لقد بكيت وهذا لم ينفعني في شيء . وفكر أن يتأخر عن وقت تناول الغذاء مرارا . غير أن وازعا خفيا كان يمنعه من ذلك . لحظتها آمن أن للاشياء الخفية سيطرة قوية على تصرفاته وسلوكه . ان تلك الأشياء الخفية هي التي تجعل أبي يستيقظ كل صباح مبكرا ويغادر البيت . وهي نفسها التي تجعله يمرمط باستمرار وتجعلني قلقا في الوقت الذي أكون فيه بحاجة الى راحة . وعندما وجد نفسه في البيت قال لأمه :

- هل عاد أبي ؟

- انه في المرحاض .

وأمسك أنفاسه . دخل الى الغرفة وتكوم على نفسه . نظر من النافذة الضيقة الى الفضاء الأزرق الفسيح . وبقي في وضعه ذاك فترة غير يسيرة . كانت تدور برأسه أفكار معادة . ولكنه كان يجد في اجترارها تسلية وتعويضا عن الفراغ المميت الذي يحسه في حياته . وتذكر أن اباه ، سوف يواجهه

كالعادة كل يوم بتلك الاسئلة القاسية . وفكر انه سيحتملها كما احتملها طيلة الشهور الماضية . وتكوم على نفسه من جديد ، وأمعن النظر في الفضاء الأزرق الفسيح . ثم رفض أن يظل في وضعه ذاك . وقفز بسرعة كمن يستعد الى المبارزة . وغادر الغرفة فواجهته أمه :

ـ الى أين ؟ ألا تتغذى ؟

ـ لا ... ساعود .

كانت صورة أبيه وهو يمرمط ويعيد جمله المكررة المملة تتضخم في رأسه . شعر أنه يستطيع بعد اليوم تحمل تلك الادانة التي يوجهها اليه العالم من حوله ، خصوصا وأن الادانة لم تكن مبررة . ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت ؟ وواجهه البحر والسور الحجري على بعد 300 أو 400 متر . وعبر الطريق التي كانت خالية . ثم ملات خياشيمه رائحة السمك ، وداس فوق الهياكل العظمية .

رأى حسين ما يزال في المكان . وتوجه نحوه ثم ألقى بنفسه قربه . فوجيء حسين ، وقال وهو ينظر في الماء :

ـ هل تغذيت ؟

قال أشهب :

ـ نعم ... (وكانت امعاؤه فارغة) .

وصمت لحظة . تشمم الهواء بغضب وعيناه في الماء . فكر أن يقول لحسين أنه لم يتناول شيئا وأنه جائع وأنه كذب عليه . ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية . وقال له :

ـ ناولني واحدة .

قال حسين :

ـ فتش تحت السلة ، ليس معي سوى اثنتين .

وفتش أشهب وأخذ يدخن بعمق . كان يشعر بالتهاب في رئتيه ، وحول عينيه يمينا ويسارا . ما يزال الصيادون منتشرين . ونظر في الماء البعيد ، وأخذ يحلم برحلة طويلة الأمد . وفي تلك الأثناء استطاع حسين أن يتلقف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سمكة في الهواء ويضعها في سلته . لكن أشهب كان ما يزال يحلم ، ولم يكن من عادته أن يحلم كثيرا .

اقترح حسين أن ينهضا .

ـ سأذهب لأتغذى .

قال أشهب :

ـ طيب . اذهب وحدك ، أنا تغذيت .

وعندما انصرف حسين . بقي أشهب وحده بين السور والماء والرائحة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إدريس الضوري

المصلوب

قال علال في نفسه ذاك المساء عندما خرج من الادارة : « الركوب في الحافلة شيء مقلق ، بل هو شيء فظيع ويبعث على الغثيان ! » . وسار ببطء ليقف فوق الرصيف الذي يشكل محطة فرضية . الدرب جد عريض ، لكنه جد مخيف في الليل لأنه بلا مصابيح .

السادسة الآن تماما ، هذا هو وقت خروج المدينة . وكان الليل قد ارتمى على المدينة يطلب الالتجاء . لقد بات الليل طويلا ، وهذا وحده كاف لأن يجعله يتخلص ، على الأقل ، من سأم الكتابة في تلك الغرفة الضيقة ... أجل ، في الليل ، حين يتمالك على كرسي المقهى بما فيه الكفاية ، ويأكل البطاطس الصفراء بما فيه الكفاية ، يبدأ في تنفيذ مشروعه المسائي اليومي: تسكع في أنحاء المدينة بلا معنى ، حضور لحظات ممتعة وغير ممتعة ، الجلوس في هذه المقهى ، مغادرتها ، الوقوف ببلادة أمام الواجهات الزجاجية التجارية ، الدخول الى قاعات السينما والنظر الى صور الأفلام التي ستعرض خلال الأسبوع . هي عماية سخيفة على كل حال ، ولكنه كان يجدها لذيذة نوعا ما ، ومهما يكن فانها عملية ايجابية لأنها تطرد عنه السأم .

قال علال في نفسه ذاك المساء وهو شبه حزين : « لقد بت أعتقد أنه ما من حل ، بالنسبة للشخص المتأزم مثلي ، كالتسكع في الطرقات ، آنذاك أكون قد هدأت قليلا . التسكع هو التعويض ، خصوصا اذا انتهى بالحصول على امرأة » .

أليس هذا شيئا جميلا ؟ ومهما يكن فانه جد شخصي ، جد شخصي ..

كان يسير ببطء مثل عامل لديه متسع من الوقت ، هكذا فهو يضع يديه داخل جيبيه ويصفر ويضرب الحصى بقدمه اليمنى . عن يمينه كانت سيارات المعمل الاسرائيلي رابضة ، وعن يساره كانت جدران المعمل الآخر كالحة ، الهواء رطب في الخارج لوجوده هو في الخارج ، لكن داخل المطبعة الكبيرة كان الأمر شيئا آخر : هنا كان على علال أن يعيش بتلقائية ، ويضيع وسط عالم مصنوع من الورق ، ومن الآلات ، ومن الابتسامات الانسانية . كان الجو دافئا للغاية ، ولم تكن نرثرة الأصدقاء تضيع سدى ، كان علال يعطيهم مقابلها : الابتسام ، لقد كان علال يكتشف أنه يعيش لذة من نوع آخر ، فوسط ضجيج المطبعة التي تأكل الكلمات اكتشف أنه انسان .

وقف علال فوق الرصيف الترابي ، وتساءل في نفسه : « لماذا الركوب في الحافلة أمر مقلق ؟ » .. « لأن الازدحام الكثير يكون بخارا نابعا من ثياب الركاب الملتصقة بالاجساد الغليظة والأجساد النحيفة ، لكنه بخار غير مرئي ، وهو سرعان ما يصيب الاعين الجميلة مثل عيني ربيعة » انه التراخوما ! وبصق علال : ما معنى هذا ؟

كانت المحطة الصغيرة ترابية وغير مبلطة ، قريبة جدا من محطة البنزين الصفراء . لم يكن علال مرتاحا الآن ، كان يتسكع يوميا في الدروتين، وفي التفاهة . وفي الذوبان ، وفي اشياء أخرى غير مفهومة ، وفي بعض الأحيان كان يريد أن يكتب عن هذه «الحالة» الخاصة التي تخصه وحده ، ولكنه لم يكن يملك اية رغبة أو ارادة . ففي الغرفة كان يقرأ قليلا ، ثم يستسلم للنوم ، وفي المقهى كان يجلس قليلا لرؤية العالم ثم يقوم ليتسكع، حيث يقف أمام الواجهات التجارية ببلادة ، وأمام صور الأفلام التي ستعرض خلال الأسبوع . هو الذي أختار أن يكون هكذا ، ومهما يكن فهذه هي ..

حين اتكأ على الحائط البارد كان عالم أنثوي قائما بذاته ، ولقد أحس الآن بالوحدة ، لكنه أحس أيضا بالرغبة . وهؤلاء النساء المتزوجات وغير المتزوجات ، المخطوبات والمطلقات ، هؤلاء اللواتي يسهرن ليلة السبت في شقق بعيدة في أحياء بعيدة ، هؤلاء كلهن ، ألا توجد واحدة منهن تريده ببساطة ؟ ومن جديد أحس بالوحدة ، انه يريد مثلا احداهن ، ولكنها طبعا لا تريده ، وهو لا يعرف لماذا ؟

كان علال يروح ويجيء ، هذا هو السأم . لقد تأخرت الحافلة ، وفوق الرصيف الترابي جلست ثلاث نساء مجلببات يحكين عن مغامراتهن .

الحافلة ما زالت بعد لم تجيء ، ومن حين لآخر كان علال ينظر الى بعيد ، أجل ، على امتداد الطريق الطويل والعريض الذي تمر منه الحافلة يوميا ، على امتداد الطريق الطويل لم يكن علال يرى غير ضوء سيارات صغيرة قادمة كما لو كانت في سباق ، النساء من حوله كن يسئمنه . وتساءل: من تستطيع منهن ، على الأقل ، أن تمنحه جسدها لليلة واحدة ؟ من ؟

كان علال واقفا ينتظر . هذا هو السأم بعينه ، في تلك المدينة الجزائرية لم يكن الانتظار طويلا ، ولكنه هنا اطول . ورأى مزيدا من النساء خارجا من الدرب العريض ، قطعن الطريق ووقفن كلهن فوق الرصيف الترابي ، كن مختلفات الأعمار ، وفاشلات في الحب وفاشلات في الزواج . وبالاضافة الى سأم الانتظار كان علال يشم رائحة قذرة منبعثة من البالوع القريب . وأجابت المرة الواقفة بجانبه : « من المعمل الاسرائيلي » . وبصق علال بشكل مثير . كل شيء يبعث الآن على السأم : الانتظار الطويل ، رائحة البقر القادمة من بعيد ، رائحة البالوع ، النساء الكثيرات اللواتي لا تريده واحدة منهن . في العادة لم يكن يطيق هذه الرائحة ، ولكنه وجد نفسه مضطرا الى أن يشمها . ثم ابتعد عن المرأة الواقفة بجانبه ، كانت الرائحة ما زالت تنطلق من البالوع الموجود تحت الرصيف ، ساخنة ، مثل غرفة ظلت مغلقة طيلة نهار قائظ . ثم رجع ، ثم ذهب ، ثم رجع مرة أخرى : مهما يكن فهذه هي المحطة الترابية .

وكما لو كانت الحافلة سيارة انقاذ فقد تسابقت النساء الى بابها الذي لم يكن قد فتحه قاطع التذاكر بعد ، كن مندفعات ، وكن يولولن ويلعن بعضهن ويلعن بعضهن لأنهن اصطدمن مع بعضهن فقط . وحين فتح لهن قاطع التذاكر الباب كن قد هجمن عليه ، لقد كن صرخن من فرط الزحام ، وكانت مؤخراتهن قد برزت بشكل واضح ، وكان علال يبدو بينهن وحيدا ، ساكتا ، غير مبال ، كان « يناضل » من أجل الصعود الى قلب الحافلة ، ان هذا الازدحام يقطع على المرء كل أمل في أن يجد مكانا شاغرا ، فكر علال ، كانت الحافلة ممتلئة جدا مثل علبة سردين مغلقة ! وقال قاطع التذاكر :

« يالله .. بلطف » وطلبت النساء منه أن يمهلهن : لقد كن غليظات ومتعبات !

كان الركاب ينظرون اليهن باستهزاء ، ولم يكن علال يجد الوسيلة ليتكلم ، ماذا سيقول بالضبط ؟ لقد استطاع أن يصعد الى الحافلة ، وان يضمن لنفسه مكانا صغيرا وسط الأرجل المتشابكة مثل غابة أشجار كثيفة . وكما لو كان مدفوعا من الوراء فقد وجد نفسه وراء امرأة عاقلة متوسطة السن أوقفت اندفاعه الى قلب الحافلة . لقد أراد أن يتجاوزها بأدب لكنها كانت قوية كعناد ، وهكذا أحس بغثيان يرعشه . لو أنه لم يركب الحافلة وهي ممتلئة ، لو أنني لم أقف وراء المرأة .

لا أحد يريد أن يتقدم الى الداخل . كانت الحافلة قد امتلأت مثل «لاراف» لقد التصق الركاب ببعضهم ، لكن في مكان ما ، من الحافلة كانت هناك حركة غير عادية يحدثها رجل مع امرأة . كان الالتصاق بالأجسام الأنثوية لعنة ، ولكنها ليست لعنة عند الرجال غير المتزوجين ، عند الرجال المكبوتين والشبان المكبوتين ! لقد حاول علال ان يهجر الحافلة تماما ، ولكنه كان يجد نفسه مضطرا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المدينة كبيرة وفظة مع ذلك ، المدينة لا ترحم ، المدينة غول كبير يبتلع الرغبات الذاتية ، ومهما حاول المرء أن يتجنب فعل شيء غير أخلاقي ، فان المؤخرات الضخمة والرطبة ، للنساء العاقلات وغير العاقلات ، تدفعه ، دون اختيار أخلاقي ، الى ارتكاب شيء غير أخلاقي . كان علال يفكر : ان هذا الازدحام نفسه ، الذي يبعث على الغثيان والقرف وكذلك على أشياء أخرى ، يجعله ، غريزيا ، أمام وضع شاذ ، لا مهرب منه ، وضع مراقب وباعث على الضحك .

في البداية حاول علال أن يتجنب الوقوف وراء المرأة العاقلة ، هذا اختيار أخلاقي كما فكر الآن ، ولكن الركاب الآخرين كانوا قد دفعوه الى الوقوف وراء المرأة العاقلة . من المسؤول اذا حدث شيء ما ؟ مثلا ؟ أن يحس المرء بأن شيئا ما ، في ركن ما من جسمه ، قد تحرك . من المسؤول اذا حصل المرء على نشوة غير منتظرة ؟ نشوة بدائية وضائعة مع ذلك ؟ ... لم تكن المرأة العاقلة تلتفت الى الوراء ، ولكنها أحست بأن جسدا آخر ملتصقا بها ، وهي

نفسها أحست بنزع من الدفء . نعم ، هو الذي اختار أن يجد نفسه هكذا . لو أنه استقل سيارة أجرة ، لو أنه ذهب راجلا ، لو أنه انتظر حافلة أخرى ... ومع ذلك فان ما يثيره هو فضول الآخرين ، هو الذي اختار أن يجد نفسه هكذا ... مـراقبـا .

تقف الحافلة في محطة لشارع كبير ، وأطل علال من النافذة : فـوق الـرصيف كان جمع من الفتيات الموظفات ينتظر قدوم حافلة أخرى . المدينة كبيرة وفظيعة لأن الانسان يضل فيها بكثرة ، ولقد صعد بعض الـركاب . كان الازدحام قد اشتد ، وكان الالتصاق بالأجسام الأنثوية قد اشتد هو الآخـر . لقدجعـلت هذه « الحالة » الخاصة علال يحتضن المرأة العاقلة عن كـراهية . انه الآن أكثر التصاقا من السابق . في الأعماق كان هناك احساس بالنشوة ، ولكنها نشوة مراقبة . ترى ما هو رد فعل المرأة ؟ تساءل علال .

ـ أعتقد بأنني قد زاحـمتك

ـ لا ـ لا .. هذه هي الحـافلة

ـ هل الحافلة هكذا كل مسـاء ؟

ـ نعم ، ولطالما أحسست بالازدحام قد أفقد شيئا ، لقد تعـودت على « ذلـك » .

ـ عـلى كل حال أرجو المعـذرة

ـ معـذرة .. لقد تعودت على « ذلـك » !

قال علال في نفسه : « تـلك رائحة الـركاب » ثم نظر حوله : كـانت هناك امـرأة أخرى تنظر اليه ، وأحس برغبة اسمها الامتلاك . هل هناك شيء أفضل من المرأة ؟ الحافلة تقف مـرة أخرى ، هناك شعـور حاد تملك عـلال بأن يرفع صوته ويحتج ضد هذا التكدس البشري ، ولكنه ليس هو الآخرين . ولم يعد يقوى على تحريك ساقيه المتعبتين بكرة : من فرط الـوقوف فـوق الـرصيف أثناء الانتظار ، من فرط الـوقوف في المطبعة للتصحيح ، ان كـل هذا شيء لايكتمل ،لقدشعر بالذوبان ، في الالتصاق ، في العرق ، في رائحـة العاملات ، في المرارة داخل عـلبة سردين مغلـقة .

الحافلة تقف مرة أخرى : هذه هي المهزلة ، كان السائق وقاطع التذاكير

لا يريدان أن يقتنعا بأن الحافلة قد بلغت مستوى « من الازدحام جعل عـلال ملتصقـا » بالمرأة عن كراهية ، انهما لا يريدان أن يقتنعا بأن الازدحام قـد جعل بعض الأجسام الجميلة والنحيلة تنهار ، نعم ـ لقد كانت الحافلة نفسها انهيارا ، وكان السائق وقاطع التذاكر يكونان لنا انهيارا ، واذن فان الالتصاق بالأجسـام الأنثوية له ما يبرره ، وتكوين العلاقات له ما يبرره .

ـ لقد أوشكنا على الـوصول

ـ ولكننا سنصـل متعبيـن

لو يكونا معا يريان بعضهما ، كان التصاقهما في حد ذاته رؤية . ومثل زوجين سعيدين سعادة خاصة ، وذاهبين الى زيارة عائلته أو عائلتها كـانا واقفين وقوفا خـاصـا .

ـ هل تركبين دوما فـي الحـافلة ؟

ـ نعم لدي اشتراك شهري ؛ فانا أدخل المعمل في السابعة صباحا .

ـ هل أنت متـزوجـة ؟

ـ سـابقا . قد اكتشفت أن زوجي يخونني مع أختي

ـ شـيء غيـر جميـل

ـ كنت أحبه ، ولكنه كان يخونني مع أختي ؛ وأنا حرة الآن

ـ الـزحام كثيـر اليـوم

ـ لقـد تعـودت عـلى «ذلك» !

كانت تتحدث الـيه دون أن تلتفت اليه . دخلت الحافلة شارعا كبيـرا يشكل لسانا طويلا يخترق صدر المدينة . كانت المدينة منداة برطوبة البحر ؛ وكانت البواخر تزعق في الميناء . صعد قليل من الركاب ، نزل كثير مـن الـركاب . مهما يكن فان هذا ليس الا انفـراجا ؛

لقد أوشكت الحافلة على الـوقوف في المحطة النهائية . كانت تسيـر بتثاقل . نعـم ، هنا سيكون على علال أن ينفـرد بنفسه ويتنفس هـواء مليئا برطوبة البحر ، وبدخان السيارات . نعـم ، سيتخلص الآن من الالتصـاق بالأجسـام مثل جسم المرأة العاقلة اللدن . ليست الحافلة سوى علبة قصدير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خـاصة بتكوين الدف ا بشري وبتكرين العلاقات الخاصة ، سوى علبة قصديرية ملتهبة تضرب الأعين الجميلة مل عيني ربيعة .. الله يا لعيني ربيعة ! انهما لا تنظران الي في لحافلة ولكنني نا أنظر اليهما : كانا مصباحين صغيرين اخضرين يضيئان الحفلة فينسى ركاب الحافلة انفسهم وانسى نفسي أنـا أيضا والتفت الى ربيعة ، ثم ارى في وجهها المصباحين ينظران الي . انهما يضيئانني لاني بحاجة الى ضوء أخضر لأنطلق ، بحاجة الى ضوء اخضر .

قد شعر علال بالتخلص . كان يسير وحيدا مثل نفسه ، المدينة غابة كثيفة ، مر على المقهى ، لم يجد صديقه ليحكي له التجربة ، ذهب الى محطة الحافلات وصعد احداها . كان ساكتا مثل نهر صغير .

وفي الحافلة كانت عينان صغيرتان شبيهتين بعيني ربيعة ، لكنهما غير خضراوين . أنا بحاجةالى ضوء اخضر لأنطلق ، ولتسقط التراخوما !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هِجْرَةُ الْأَلَمِ

=

ـ ذِكْرَى :

بُكَائِيَّةَ اللِّقَا قُولِي :

إِذَا مَا ازْتَجَّ بَابِي وَالْتَوَتْ أَشْجَار

وَتَاهَتْ بِي خَيَالَاتٌ وَأَسْفَار

تُنَادِينِي إِلَى التِّلِّ

فَيَا وَيْلِي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تُرَى تَنْسَيْنَ مَوْعِدَنَا عَلَى أَعْتَابِ تِلْكَ الدَّار

نُرَدِّدُ "كَالْجَمِيعِ" حِكَايَةً تُرْوَى :

"رَفِيقُ اللَّهِ كَانَ يُدَاعِبُ الْأَوْتَار

وَكَانَ يُغَازِلُ السَّمْرَاءَ وَالشَّقْرَا

وَكُلَّ مَلِيَةٍ سَكْرَى"

تُرَى تَنْسَيْنَ مَوْعِدَنَا عَلَى أَعْتَابِ تِلْكَ الدَّار:

وَكَانَ "التِّينُ وَالزَّيْتُونُ" يَسْتَجْدِي أَكُفَّ الْغِيدِ

وَالْفِتْيَان

يُعَانِقُ بَابَنَا السَّأْمَان؟ !

ـ مَوْقِفٌ :

فَأَيْنَ الْخَمْرُ أَيْنَ الْغِيدُ وَالْفِتْيَان
وَأَيْنَ حَدِيثُنَا النَّشْوَان
إِلَى الْفَجْرِ
نَلُوكُ حِكَايَةَ الأَبْطَالِ وَالْفُرْسَان
فَمَعْذِرَةً
سَأَفْنِي بِالْحَشِيشِ الْمُنْتَقَى عُمْرِي
وَأَنْسَى بِالْكُؤُوسِ هَزِيمَةَ الأَيَّام !

ـ الْبَحْثُ عَنْ ضَائِعٍ :

فُلُولُ اللَّيْلِ تَنْهَشُنِي
تُبَاعِدُ بَيْنَنَا الْحُلُمَا
أَتَعْرِفُنِي !
مَتَى ؟ وَجْهُ حَزِينٌ يَرْتَدِي أَلَمَا
يَفُوحُ الْقَارُ مِنْ وَطَنِي
وَرَاءَ الْقَبْرِ أَلْهَثُ فِي دُنَا الْكَفَنِ
وَأَبْحَثُ أَبْحَثُ الأَرْكَانَ عَنْ "وَثَنِي"
تَقُولُ الرِّيحُ لاَ جَدْوَى
فَأَلْهَثُ أَسْتَغِيثُ الرِّيحَ وَالْعَدَمَا
وَلا جَدْوَى !

ـ لاَجِئٌ :

خَرِيفِيَّ الْمَزَارِ صَدَاكَ الْمَنِي

تَنَاهَى صَوْتُكَ النَّائِي وَفِي دَرْبَيْنِ
فَمٌ مُزٌّ وَقَلْبٌ سَاهِمٌ مَلآنَ كَالْجَفْنَيْنِ
وَدَوَّنَكَ الأَسَى أَمْسَيْتَ قِنًّا عُمْرُهُ أَتْعَاب
وَضَاعَ آلأَهْلُ وَآلأَحْبَاب
فَصِرْتَ عَلاَمَةً لِلتِّيهِ وَالتَّجْوَال !

ـ خَبَرٌ أَخِيرٌ :

بُكَائِيَّةَ اللِّقَا لاَ تَنْدُبِي صَمْتِي
تَدُكُّ الْيَوْمَ "عَاصِفَةَ" جِدَارَ الصَّمْتِ
بِالْأَمَلِ !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمد عزالدين التازي

أشياء العالم

هو رجل والبندقية على كتفه أكثر ساعات يومه . لكن الدنيا لا تريد الا أن تغيظه أو عينه هي التي تغيظه بما تراه من مرئيات . ابتداءا من نفسه فهذا الرأس الذي يتوسط كتفيه لا يعجبه . يقف أمام المرآة كتمثال لا يدري لماذا يكسو الجمجمة شعر أسود غزير لم يكن يتمناه .

والعينان الرماديتان تدلان على الفصلة ، ثم الانف الذي يبدو كما لو نحت من صخر . والشفاه الغليظة كحافتي مركب يميل لونها الى الزرقة ليبحث لنفسه عن وجه جديد وليغير العيون المثبتة عليه حتى تتغير المرئيات القاسية. كان يختلط بدماء الموتى ويطير وسط الدخان ونار القنابل . ولم يكن يقف متحجرا والبندقية على كتفه أكثر ساعات اليوم . يقف الخمار ليستعيد شكل وجهه وينظر من زاوية الاحتجاج الى أشياء العالم . وان أوهموه بانه حارس بلدي وأن أعمالا بلدية تدوم على اكتافه ، فليس هناك سوى الوقوف .

عب من السيجار وتراءى له أشخاص فانفتح قلبه لمشاعر جديدة . وامتد الطريق أمام عينيه ، كما يراه وهو يقطعه بالسيارة الى القرية حيث أمه موحشا قاحلا لا يحمل أي معنى . تترامى على جوانبه الحقول من غير زرع والأبقار الهزيلة شاخت وهي تنتظر السمنة . والقنديل الأخضر عند رأسه في الركن المفضل في تلك المقهى الشعبية التي كان يغشاها بالمدينة بعد انتهاء الخدمة . لم يحدق في ذلك القنديل منذ (قرن وغزالة) . نسي حتى أن يذكر المقهى بذلك الديكور . والمرأة الجميلة التي تبل يدها في أول لقاء ثم قادها الى أتيل توبكال فأصبحت لذته في أن يصفع قفاها .

وصوت المتسول الذي كان يبكيه عندما يأتي كل صباح الى حي القصبة المكتظ ببقايا أرواح بشرية . هناك واد يفصل بين الماضي والحاضر . ويضع

الخمار أمام وجهه الحقيقي في المرآة . وأمام الشر الذي يتشكل حوله كل سقط الانسان . بالامس حلق رأسه وتركه عرضة للصفعات المازحة ، التي لا تغيظه بقدر ما يغيظه أصحابها الذين يغرقون أنفسهم في المزاح ولا يتنفسون الا الفساء . حلق شعره لانه لم يكن أشقر كذلك الذي يكسو رأس أمريكي سائح ينتهي عند قفاه السمينة المشربة بحمرة . كان من الممكن صبغه أشقر . لكنه المسخ الذي من أجل محاربته سيقوم سيدنا عيسى ، وتنقلب الاسواق الى معركة أساسها التمييز بين الاسود والابيض . وترك جمجمته عارية كبنات اليقطين .

ظل شيء يتمطى في أعماقه كالمخاض لا يريد أن ينتهي . كيف البحث عن الوجه الجديد ذى العيون الزرق ؟ عرف الكيف مدة تحت القنديل الأخضر وما من شيء فيه قد تغير . سوى أن شلت حركته الدماغية الى حين . لعن العشب الخبيث ومضى الى الطريق هادئا يرى كالآخرين أن السماء فوقه والارض تحت قدميه . وأدرك لاول مرة وجود شيء لا يقلق راحته هو الوادي الذي يشق المدينة ويجر النفايات . ضحك اثرها وأطل بوقفته العسكرية على الفئران التي تركض تحت منحنى القنطرة . حدق فيها وفكر بأنها تخرب جذوع الاشجار في الحقول وتقضم الثمر . فتساءل : لأي شيء خلقها الله ؟ هو لا يعافها ولكن الزائد لا ينبغي أن يبقى . وقد أكل من لحوم مخلوقات أبشع من الفئران نيئة ، ولكن الزائد لا ينبغي أن يبقى .

ودخل المقدم صامتا فاستفاق الخمار من ذهوله وأفكاره . وأدار قرص التيلفون وأخذ يتكلم :

ـ آلو .. العسة .

ـ ...

ـ نعم كل واحد في مكانه . ثم التوزيع حسب المراكز .

ـ ...

ـ لو سمحتم ..

ـ ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تقبل المناطعة بضجر وبدا كأنه لا يصغي وأجال بصره فيما حوله وطالت نظـرته لاكياس الـدقيق .

ـ شكوى جديدة من بائعي الخضر بالحوانيت .

ـ ...

ـ نعم توجه باطروى . لو سمحتم بتأخير التوزيع يوما أو يومين . جموع كثيرة ولا تريد أن تأخـذ بالصف .

ـ ...

ـ نعـم العيـد ولكـن ..

عرف الخمار أن المتكلم قد قطع الخط . وتحول اليه المقدم بعـد أن وضع السمـاعة وفي عينه نظرة خـاصة .

ـ انتهت أعـوام الشـر .

وجاءت أعوام الوقوف والهباء . والنظرة الحاقدة من بقايا الارواح البشرية لكل من يلبس زي البلدية . والقهر والخيبة المكبوتة . يلقاه رجال يبحثون عن الخبز معروفي الظهور . ومع ذلك فهم لا يريدون الا الموت . هؤلاء من يستحقون الحياة . ولكن كيف وأولاد الكلب يتمرغون في الكيف والنقود . ويوم ذهـب ذلك الكلب ليقول للناس بعلاقة الخمار بزوجته . المرأة التي أرضعته في القرية مع ابنتها وعاشت معهم مدة تحت سقف واحد . ومرت سنوات وجاءت فطومة للسكن معهم في حي القصبة . عادت علاقة القرية والرضاع التي ظلت تـرسم الماضي في وعيه حتى وهو في صف القتال . ماتت بنتها وبقـى شيء واحد يصله بها هو ما تفرضه العادة وتسميه حق الـرضاع . لكن الكلب يريد أن يقتله غما بكلامه تفجر منه الضحك عن رغمه وأحس تحفز القتال . هجر المقهى ونسي حتى المنديل الأخضر . لأنه كان صاحبها وموزع الكيف على الزبناء . جاء من القرية فعمل بقهوة جلول ثم صار صاحبها ، وفي الاخير يقـول ان الخمار يغدره . والدنيا لم تسع النساء ، وللخمار ابن في كل بلدة من بلدان الدنيا. كان محاربا وكان يخلد الى هن بعد أن يطمئن الى أن الرصاص ونثار القنابـل قد أبقيا على رأسه في مكانه . فماذا يريد هذا الكلب عندما يقول للناس بأن الخمار يغدره . ما زالت عيناه تغيظانه عندما يلتقيان في الطريق . يشيـح

بوجهه لأنهما تريان شيئا أحقر من الفئران التي تركض تحت المنحني . فلو أن منشارا يمر في الطريق ويحصد رؤوسا فيخلف ركاما بشريا لا يتحرك . أيها الانذال ليس كل الناس أنذالا . والا لحلت اللعنة وقام سيدنا عيسى . فلتغرق الدنيا في الكلام ، ولتتشمم أنوف الكلاب رائحة الفساء والمرض .

انتبه الى أن المتقدم يحدجه بنظرات غريبة وقد انصرف الى أوراق يقلبها على المكتب ، هو ذاهل ولكن ماذا سيفعل في وقوفه ؟ أعوام الشر وثار القنابل ، انتهت لتحل محلها أعوام الحقد والتجمد في الوقفة العسكرية . اليوم لا يصلح الا لحراسة مكتب العسة المنصوب في تجويف باب عتيق .

وفي الطريق واذا مر بساحة كبيرة يطارده الاحساس بان يهجم اليهود . البندقية على كتفه طوال ساعات الحراسة وليس له حق استخدام ما وضع تحت تصرفه . فليهنأ اليهود بالامان وليدخلوها آمنين . ويوم قطع الطريق الموحش الى القرية حيث أمه وحدثها عن أحوال الراديو :

ـ اليهود أخذوا بيت المقدس .

واعاد هذا الاسم الى ذاكرتها ما كان يقوله الفتيه عن سيدنا ابراهيم ، وبعض الانطباعات التي خلفها سماعها لآيات قرآنية فجزعت وتأوهت :

ـ آه ... الله يحرقهم .

ـ ويقتلون المسلمين كل يوم .

ـ الهه .

ـ ويهدمون البيوت على أصحابها .

ـ مساكين !

ـ ويذبحون النساء ولا يخافون أحدا .

ـ لو شاء الله لسحق اليهود أو لجعل الارض تبتلعهم .

لم ير أن الارض تبتلع أحدا ولعل الله لا يريد فمتى يشاء ذلك ؟ ولو شاء فلماذا تصلح البندقية ؟ الشر يعيد الكرامة ويدفع غدر الكلاب . لم ير أن الله قد مسخ أحدا جمادا وان ترامى الى مسمعه أكثر من ذلك . وسيدنا عيسى الذي سيغسل الارض بدم اليهود ماذا ينتظر أن يقوم ؟ بل متى يصطدم الروس

والامريكان فتقوم الساعة فقد صار اليهود دولة تحكم ؟ وذلك الشعور الذي يضطهده وهو يمر مرفوع الهام بانبطحاء . أن تغير طائرات اليهود على المقاهي وتاعات السينما فتقتل منا عددا كبيرا . ولا مخبأ . أمه ستطحن قمحها قبل أن يتم كل ذلك فتغلق المطاحن . وبقرتها الهزيلة تل عطاؤها من اللبن . حتى قمصانها التي تآكلت تريد أن تبدلها بغيرها قبل أن يعود ما كان من أعوام الشر . لست وحدك من ستجوع أو ستعرى يا أمي ، وأن يغير اليهود فعلينا أن نضرب بالوطب والحجارة .

والآخرون في قهوة جلول يمارسون لعب الورق والمزاح العنيف بينهم . ولن يضربوا حتى بالبصاق . أخ . لم يعد هناك شيء يصلح وسيبقى رأسه حليقا وعيونه الرمادية ترى ما كانت تراه وان كان بالحقد . الدود ولدماء البشريه التي اختلط بها ونثار القنابل . وهناك رجال كثيرون مثله عرفوا حقيقة العدو كائنا من كان . لكنهم صدئوا وتجمدوا في الوقفة العسكرية يحرسون الهواء والهباء . وماذا يفعلون بعد الخدمة سوى أن يستعيدوا ذكريات الحرب والموت والنساء . ويثرثرون في المقاهي . هو الآخر أصبح في هاته الايام يثرثر وفي غير قليل من الصمت . المسألة تتعلق بالحقد والغضب . بالرئيات القاسية . وهو رجل قد ابتلاه الله بعيون لا ترى الا الموت . وفي الصمت يصنع بخياله صور أبطال يثبون بين النجوم . ويدوسون التراب بأقدامهم كأن لن يرجعوا الى الدنيا .

ونظر من نافذة مكتب العسة الى فضاء الحقول فرأى لقلاقا يضحك في عشه فوق الدوحة . راقبت عيناه الجناحين الابيضين تلامسهما أجنحة أخرى. وأخرى تحلق . انطبعت على شفتيه الزرقاوتين نصف ابتسامة . ذابت فجأة وتصرم وجهه ، وأحس أنه قد انسلخ عن الشيء الجميل الذي خطر له عندما ركز بصره على بياض الجناحين ، لو يطلق على ذلك اللقلاق . وتصوره ملهذا في بقع حمراء قانية . ليس الامر شيئا كبيرا فهناك آخرون يبقرون بطن قطة حبلى برصاصة فقط في لحظة انتشاء . واذا بالت على اشجار الحديقة القصيرة كان قد غادر لمقدم مكتب العسة واستدار عفوا فرأى تلك الاكياس العدية التي تقبع في ركن المكتب . دوما تستغرق نظرته المتجهمة «ليس للبيع ولا المبادلة» . في هاته المرة توهجت أعصابه بكثير من الغيظ . المقدم يطلب من الخايفة

بالتيلفون تأخير التوزيع يومين ، لانها جموع كثيرة ولا تريد أن تأخذ بالصف. والخليفة يفهم هاته الجموع كثيرا في الأيام القريبة من العيد .

أمن أجل هذا تضربون الصفوف وتتبادلون الشتائم الفاحشة . أنه هدية فزمان الخير ولى . الخمار يعرفهم ، وعند التوزيع يلمح نظراتهم المستجدية بكثير من الحقد . وكأنه بعد ذلك يسمع أسنانهم تقضم . ورأى أن الأكياس ترتفع تدر قامته وأحس بنفس الاحساس الذي به ود لو يطلق على اللقلاق . الأكياس لن تلمذ في بقع حمراء قانية . ثلاث طلقات بقربها . واندلق الطحين الأبيض الناصع على أرضية المكتب . غارت الرصاصات في الداخل وتقلصت عضلات وجهه من الدهشة . أحقا فعلت أصابعه ما كان يفكر به في لحظة الوقوف ؟ اللعنة . لم يفعل ذلك حتى مع تلك الاصوات التي تقلقه وهو يتقلب على الفراش . الكلاب الذين يبادلونه نظرة الحقد . وفتئت عينه ببلاهة عن الرصاصات . نبش عنها بأصبعه وقد اضطربت كل خلاياه . الخمار في عداد الجنون . لان ثلاث رصاصات فلتت منه . انطلقت من ذاتها من فوهة البندقية . ووقف حائرا وقد زاد اضطرابه حتى تخيله المس . وتمتم باسم الله الرحمن الرحيم . ليس هذا غريبا ولكن المقدم والخليفة والعسة والبوليس لا يتوقعونه . أن يهرب وسيجد مثل قهوة جاول في بلد آخر . انطلقت الرصاصات من ذاتها ولم يدر كيف . وأطل من النافذة فجذبت نظره قهقهة اللقائق . وتحت الشجرة الضخمة كانت جماعة من الناس يجترون عاداتهم القديمة كي تطول بهم الحياة . ومن المكتب يطلبون شهادات السكنى ويأخذون حصص الطحين الأمريكي . ويثبتون وجودهم حتى بالخصومات والسباب الفاحش . ود لو يسأل أحدا عن تفسير ما حدث وليرى هل يصدق أن تنطلق الرصاصات من ذاتها . كلهم كلاب لانهم يسرقون الخضر ويبيعونها في الطرقات .

عرف هذا الآن فقط . وهو لن يسأل أحدا شيئا ولن تقوم القيامة . لو يهرب الى القرية ويسدل لحية كثيفة على صدره فلا يعرفه أحد . سوف تلاحقه النظرات الحاقدة تخترق المدى . وستصفعه كلمات أمه . المطاحن ، حليب البقرة . سيدنا ابراهيم الخليل . والارض لا تبتلع الا الموتى ، وبعد أن ينفضوا كل قواهم فتزجهم في التراب . وسرف لن يفعل شيئا سوى أن يعود ذلك الطعم المر الى حلقه عندما يتذكر زمان الحقد ووجه الانسان . وزمان

الشيء الوحيد الذي أحس أنه لم يعد قادرا على المغالطة والتستر أمامه . هو صوت المتسول الذي كان يجيء الى حي التصبة في الصباح الباكر . ويهز بندائه القلب حتى ليفجر الدموع . يجد الخمار نفسه أمام شيء آخر غير الحقد والرصاص . وليس كل هذا بسبب ما يقوله المتسول لانه كلام عادي يحفظه كل المتسولين وهو ملك لهم . ولكن الذي يقوله لم يكن متسولا وانما له القدرة على أن يتجاوز به الوقوف والحقد والفئران التي تركض تحت المنحنى الى مشاعر لا تفسير لها . وان كان مقتنعا بها كامل الاقتناع .

وقعت عينه على نار الطحين فلعن المتسول والدنيا . تكهرب وتبرم في موقفه وقد ساوره الفنوط واليأس . أخ .. لو كانت عيونه زرقاء لما رأت هذا المكان . لرأت سيارة فورد سوداء تقف عند باب مركز البحرية .

دخل المقدم فازداد اضطرابه لكن ينبغي الا يبدو مغلوبا فسوى البندقية على كتفه ووقف وقفة عسكرية . لا شيء سوى الوقوف .

تأمله المقدم واقترب من وجهه مبهوتا :

ـ وجهك أصفر ، كنت مع الموتى ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ملامحه الرصينة لم تعد قادرة على أن تقابل المقدم . ونظراته المركزة تمزقت شعاعا . وضاق بوقفته أكثر من أي وقف مضى . نزع البندقية عن كتفه ووضعها فوق المكتب والمقدم يراقبه بدهشة . سيذهب الى القرية ويسدل لحية كثيفة على صدره وسيحتمل كلمات أمه . تقدم خطوتين ثم تراجع وحملق في وجه المقدم مواجها نظراته المندهشة بفتور نسبي :

ـ متى يقوم سيدنا عيسى ؟

م. عز. المبابى

من كلمة الاستاذ محمد عزيز المبابى بمناسبة المؤتمر الثانى لاتحاد كتاب المغرب :

الفكر ملتزم .. والالتزام حرية ومسؤولية

نستعين بالفكر مبدد التيه والظلام ، ونستعين بالوجدان السوي من عبث الأهواء وجموح الغرائز ، ونعوذ بالله منبع الخير والفكر والاتزان .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يا ملك يوم الدين ! اياك نعبد واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم بقبس من نور حكمتك ، فجعلتهم مجدين لخدمة المجتمع البشري بما آتيتهم من فضل المعرفة ، وقدرة الالتزام بمعطياتها .

من مظاهر الالتزام الصادق ، أن نعترف بالفضل لذويه ، فنقدم آيات الشكر والامتنان الى صاحب الجلالة المعظم ، الحسن الثاني نصره الله ، الذي يرعى أعمال مؤتمرنا بقلبه الكبير ، وآفاق وجدانه الطيب . لقد أسعد المؤتمر بالرئاسة الشرفية ، بعد أن أنعم على الاتحاد ، من ماله الخاص ، باعانة ثمينة ستكون ، ان شاء الله ، يمنا وبركة على انتعاش الفكر المغربي ونهضة الثقافة .

أيها السادة

شعار المؤتمر هو : «الفكر في خدمة المجتمع» .

فما الفكر ، وما المجتمع ؟ كيف يحصل اتصالهما ؟

يتعذر ، اطلاقا ، الجواب على السؤال الأول . فكل أصناف القول انصبت منذ غابر الازمنة ، على مفهوم «فكر» ، ولكنه استعصى عليها ، كما استعصى على كل الافكار وكل المفكرين .

فهل معنى هذا أن البحث عن الفكر ستبقى تجري سدى ، نعني هل سيبقى التفكير في «الفكر» يتمطى في تأملات تائهة ، دون مساق الى واقع ثابت ؟

فكما أن الماء لا يرجع على الاعقاب الى منبعه ليدلنا عليه ، كذلك اللغة لا تحدثنا بدقة عن الفكر الذي منه منشأها . نعم ، هناك لغات اصطلاحية قادرة على أن تعيد النظر ، متى شاءت ، في وسائلها التعبيرية لتبرز فرديتها (مثل اللغة الرياضية التي يمكنها أن تؤول مجموع تاريخها ، في كل نقطة من الزمان) . لكن هذا لا يتوفر للغة اللويبنات العقلية والوجدان ، لانها ترمي الى خطاب العاطفة أو التعبير عنها ، لتحدث لمسات ذاتية .

واذا كان للعالم أدوات لسانية وأخرى محسوسة مخبرية تتعاونان وتطهر احداهما الأخرى ، هما يضفي الايضاح والتمييز على النتائج ، فأنى هذا للشاعر أو الكاتب ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عالم الفكر صاخب بالتأججات ، والانفعالات ، والمفاجآت ، في حين أن وسائل الاستبار لا تعدو التلميح والاشارة ، والرمز ، أي أن عالم الفكر ، في الحلبات المصطلح عليها بـ «ميدان الآداب» ، عالم محدود في طرقه التعبيرية ، وغني الى ما لا حد له من المفاهيم والمشاعير .

ان الغاية المتوخاة ، من الآدب ومن الفن ، هي أن تتحول الافعال التي تصدر ، عن امريء ما ، الى آثار انسانية فتتغير الحركة العضوية الى مضامين للحوار والتواصل ، ويتعدى الوجود في الطبيعة الى تواجد معها ، تواجدا يؤنسن الحي والجامد .

فالانسان ، أي انسان ، ينتسب الى أسرة ، وقبيلة ، وأمة ... ، فهي التي تكونه ، بيولوجيا ، ولكنه يعيش في أسرة من المعاني وقارة من

المفاهيم ، هي التي تؤنسنه . فالفن الحق ، والثقافة الحقة ، بإمكان اتصالنا والتصاقنا بعالم الصور والدلالات التي لنا عن ذواتنا وعن العالم ، والتي تكوننا بصفتنا ذواتا في العالم .

التفكير هو القدرة على التأمل في الرؤى والمعاني ، وهو كذلك القدرة على بلورة ما نشاهده في الكون ، وما نحياه في الوجدان . وأما مختلف الدلالات والوسائل التعبيرية فمجرد اصطلاحات يضعها الانسان ليصل بها الى التفاهم مع الآخرين . ان كل عمل ذهني يصبح تفكيرا عندما يصل الى درجة من الافصاح والوضوح ، كيما يتجلى للآخرين، ويصير كسبا مجتمعيا.

الفكر ، في الاطلاق العام ، هو ، من جهة ، مجموع الظاهرات المعنوية (في مقابل ما يتصل بالجسد وبالماديات) ، وهو ، من جهة ثانية ، الفعاليات التي تحصل بها المعرفة (في مقابل الميول والنزوعات) . وفي هذا المعنى الاخير ، يكون الفكر قريبا مما يسمى بالعقل (أي مجموع القدرات التي بها ندرك ، وننظم أفعالنا الارادية) .

من هذا التعريف ، يظهر أن أعمال الفكر **التزام** ، أصلا وبالضرورة .

لكن ، ما معنى « التزام » ؟

يقول (1) بأنه ، عندما نسأل ، فجأة ، انسانا : «في أي شيء تفكر ؟ » ، فكأننا نسأله : «ما هي الجمل التي تنطق بها ذهنيا ، الآن».

فالمقصود هو أن لا أحد يفكر اذا لم يستعر من البيئة وسائل ليقوم عليها التفكير ، وان تلك الوسائل المجتمعية لهي اللغة ، حيث الفكرة دائما هادفة ، دائما ترمي الى التواصل بين الافراد ، وتتجسد في دلالات تعبيرية مشتركة . لهذا نقول : **ان التفكير التزام نحو المجتمع ، وان الفكر ، مجتمعي بالطبع ، وان مجتمعيته تفرض التزامه .**

نستنتج أن الفكر ، يتطور وينمو في ثورة على الاطر الفردية لانه حركة من أصلها تواصلية .

من هنا يقتضي الفكر وجود لغة ودلالات مشتركة .

ميزة أخرى للفكر هي أنه حركة . يؤكد (أنا كسا غوراس) أن الانسان يفكر لان له يدا ، يعني أن الانسان يفكر لانه مدفوع ، طبيعيا ، نحو العمل. لذا يجوز لنا أن نعرف الانسان بالحيوان الذي يعمل ، ويعرف أنه يعمل . فكل فعل يعبر عن تأمل منظم ، وعزم يتجسد في أفعال ، ما هو الا تعبير عن مسؤولية تغامر بحرية .

هذا هو الالتزام : اننا لا نفكر الا لنعمل ، واننا نعمل لاننا ملزمون بأعمال . اذن : **التفكير عمل .**

أدق وأبرع تعريف لهذا النوع من الالتزام ما جاء في مقدمة كتاب العبر لابن خلدون حول المنهج القويم للمفكر والمعلم : «فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة ، في المسائل العلمية . (**غذاك**) هو الذي يقرب شأنها ، ويحصل مرامها » . فمطلب ابن خلدون هو أن يجند الباحث والاستاذ والمفكر كل طاقاتهم للمناقشة ، للحوار والتواصل ، بكيفية مرتبة منهجية . ويؤكد ، أيضا ، صاحب المقدمة : أن كل « صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس أثر يكسبها عقلا جديدا تستعد به لقبول صناعة أخرى يتهيأ بها العقل بسرعة لادراك المعارف » . يعطينا هذا التصريح الخلدوني وصفة لاخصاب الثقافة وتعميمها بجعل المعطيات قابلة للتفكير ، طبقا لمنهج يقوم على الحوار ، أي على الالتزام بمبدأ التواصل .

بما أن المفكر ملتزم ، وجب أن يعي كل فعل من أفعاله، وأن يمارس فيه المسؤولية ، وبالتالي الحرية . فاذا تلقى المفكر الاوامر من خارج وعيه وضميره . صح لنا أن نتساءل الى أي حد يعتبر حرا ومسؤولا . هكذا يتخذ الالتزام معنى مرادفا لـ « حرية مسؤولة » ، معارضا لكل فكرولوجيا مسبقة جامدة . فالتقدمية اجتهاد ينير سبله تفكير متفتح . ونظن أن ما يقابل هذه التقدمية ، هو التقليد الذي يمسخ الشخصية ، ويجعل من التفكير مجرد اجترار لما جاء عن الآخرين . وربما كان أدق تعريف للتفكير الكبشي هو ما كتبه ابن بسام ، في مقدمة **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** حيث يقول : معاتبا مواطنيه على التقليد الاعمى لكل ما يأتيهم من بعيد : «حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أوطن بأقصى الشام والفرات ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتاب محكما ! » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المفكر ملتزم ، والالتزام مسؤولية وحرية ، فاذا لم تساند التفكير ثقافة عامة ، كان تهريجا وسفسطة . ان روافد التفكير هي المعرفة ، والتمكن من طرف البحث ، والقدرة على الاجتهاد (في المعنى الذي يطلقه الاصوليون على «اجتهاد» . فاذا لم تتوفر هذه الشروط ، كنا أمام تدجيل على الذات وعلى الغير ، لان الاجترار لا ينتج لفائدة المجتمع ولا يقدمه ، ان لم يجمده. ولقد فطن القدماء الى هذا ، فاعتبروا أن كتب الجاحظ ، مثلا ، من الأدب الرفيع (أو «التقدمي») ، اذ يقول أبو الفضل ابن العميد ، فيما رواه **صاحب وفيات الاعيان** ، قال : «كتب الجاحظ تعلم العقل أولا ، والادب ثانيا » : نعم ، انها تبدأ بتعليم العقل ، و « كتاب الحيوان » ، مثلا ، **موسوعة** ، أو كما وصفه محققه الاستاذ عبد السلام هارون (I) « قد يوهم اسمه أنه قد خصص بالحيوان وما يمت اليه بسبب . ولكن الحق أن الكتاب معلمة واسعة ، وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي المتشعبة الاطراف» .

ان أكبر خاصية للكاتب هي أن تكون كتاباته اثراء لمكاسب المجتمع ، على حلبة الذوق ، أو على حلبة الاحساس والوجدان ، أو على حلبة المعرفة . فليس كاتبا أو مفكرا من لا يسهم في تفكير كل من هم قادرون على التفكير ، أن التفكير عملية اجلاء ، وتفسير ، وتبليغ : الافكار الحقة قوى مجنحة تنتقل ، دوما ، من الفكر الى المجتمع ، ومن المجتمع الى الفكر .

أما المفكر فهو الذي يعي هذه العلاقة الصميمية ، ويعمل بمقتضاها .

نعم ، اننا نعرف أن العلاقة بين الفكر والمجتمع علاقة وظيفية وأصيلة ، تنمو أو تتقلص بحسب الظروف وديناميكية التفاعل بينهما، لكن ، بقدر ما تكثر الابراج العاجية ، وينبري أقوام يكتبون بأقلامهم ما لا يخرج من أفئدتهم ، بقدر ما تزداد عمقا القطيعة بين المفكرين والمجتمع . وتلك، لعمري ، أجلى ظاهرة للتخلف . ففي فترة انحطاط العالم العربي الاسلامي، لم تكن الاقلام والمنشورات أقل كما مما نلفه السلف ، في فترة الازدهار . بيد أن الفرق هو أننا نجد ، في عصور التفتح والتقدم ، المعتزلة يدافعون عن حرية الرأي ، والخوارج يعملون من أجل التساوي بين المؤمنين ، كما

نجد كتب الجاحظ تعلم العقل والادب ، وكبار الفقهاء ينادون بالاجتهاد، ويعترفون للامة جمعاء بحق المساهمة في التشريع ووضع معايير للمعاملات ، بواسطة مبدا الاجماع . أما في الخطوط التاريخية الموازية ، فنجد البيغائية في علم الكلام ، وفي الفقه ، وفي الآداب ، وتكثر الايارات المعادية للفلسفة ولكل محاولة تجديد ، بل ان التقليد ، أو الفكر الكبشي ، قد غمر حتى طرق البحث والتعليم . وها كم صورة ناصعة ، ومؤلمة ، عن تلك الحقبة من أحقاب تخلف العالم الاسلامي ، نرويها عن ابن خلدون الذي يندد بالطرق التعليمية التقليدية العقيمة ، اذ يبقى معها الطلاب : «بعد الكثير من أعمارهم، في ملازمة المجالس العلمية ، سكوتا لا ينطقون ، ولا يفاوضون ، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة ، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم » .

هكذا يرى ابن خلدون أن المعرفة لا تدرك بالمحاكاة الفردية ، ولكن بالمناظرة ، لان المكتسبات الفكرية دائما جماعية ، انتاجا واستهلاكا . ان **التفكير تجنيد للفكر** ، أما **الثقافة فمعرفة وسلوك** . فاذا لم يكن الفكر في خدمة المجتمع ، ضل سبيله ، وخسرت الثقافة المعركة ضد التخلف .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أيها السادة :

تلكم وجهة نظر حول شعار مؤتمر اتحاد كتاب المغرب ، وقد تؤيدون وقد تخالفون . لكن ، بقي علي أن أعطي صورة عن هذا الاتحاد الذي شرفتموه بالحضور ، ملخصا لما قام به ولما يود أن يفعله استقبالا .

في عام 1959 تخليت عن عملي بالمركز الوطني للبحث العلمي بباريز والتحقت بجامعة محمد الخامس ، وكان ذلك أول اتصال بيني وبين المغرب المستقل : انتهت الحماية ومضى معها قانون حرمان المغاربة من الجمعيات الثقافية الحرة ، فراودتني فكرة المغامرة ، خصوصا وقد صادفت هنا مجموعة من الاخوان الكتاب الجزائريين اللاجئين . فكان أول اجتماع لدراسة مشروع تأسيس اتحاد كتاب المغرب العربي ، بفاس ، ترأسه القصاص الجزائري مولود معمري . تحمس كثير من الادبا للفكرة ، ثم وقعت اتصالات سادها تخوف من الانزلاق نحو التناحر الحزبي . وأخيرا ،

اقتنعنا بأنه من الممكن قيام اتحاد على أسس فكرية والتزامات معنوية ، لا سياسية .

واغتنمت فرصة وجودي بتطوان فتعرفت على الشاعر م. الصباغ ، وعرضت عليه الفكرة ، فحبذها ووعد بتأسيس فرع بالشمال . هكذا بدأت الفكرة تحدث صدى في الاوساط الثقافية ، وتم اجتماع صادق على القانون العام ، وانتخب لجنة مرقتة . بعد الاجتماع التأسيسي أخذنا نهيء المؤتمر الاول ، و ضع المسطرة الداخلية ، وبحث عن موارد مادية للتسيير.

انعقد المؤتمر ، وشارك فيه وفد ليبي مركب من 5 أعضاء ، وما يناهز 30 جزائريا ، وملاحظان من السفارة التونسية (لان الظروف اذ ذاك ، لم تسمح بمجئي كتاب من تونس) .

وفي الجلسة الاخيرة ، انتخب رئيس للاتحاد ، بالتصويت العلني، ثم عين الجزائريون 5 منهم ، والليبيون 5 ، والمغاربة 5 ، وبقيت مقاعد تونس شاغرة .

نعم ، بدا الاتحاد أعماله ، الا أن المسافات وعدم الامكانيات المادية حال دون الاتصالات الدورية مع الزملاء الليبيين والتونسيين ، ولما حلت بشرى استقلال الجزائر ، ورجع اخواننا الى وطنهم ، تقلص عدد أعضاء المكتب مرة أخرى ، فاضطر الاجتماع العام السنوي أن يملأ الامكنة الفارغة بأعضاء مغاربة تطوعوا للقيام بالاعمال التي تكثر ولا تنتظر ، خصوصا وان جل المسيرين الآخرين لا يتمكنون من القيام بمهامهم ، داخل الاتحاد ، لما لهم من أعمال ومسؤوليات أخرى ، في ميادين مختلفة .

فبالرغم عن كل هذه الصعوبات ، وبالرغم من أنه ليس من بين الاعضاء متفرغ أو من يتقاضى أي تعويض ، يجب أن اعترف بكامل تقدير للجهود والتضحيات التي بذلها الاخوان ، خلال هذه السنوات ، والتي بفضلها حقق الاتحاد ، من بين ما حققه :

1) تأسيس دار الفكر لتكون مقرا للكتاب ، ولكل الجمعيات الثقافية التي تستضيفها ، وهي كثيرة ومتنوعة .

ولدار الفكر (بفضل أربعاءاتها ، وكسكسها الشهري ، والمعارض الفنية، والسهرات الموسيقية ، والندوات وغير ذلك) سمعة ، لا في الرباط والمغرب فحسب ، بل في الخارج كذلك .

2) مجلة آفاق ، ولسنا في حاجة الى التعريف بها .

3) المشاركة في كثير من المؤتمرات والندوات بالخارج .

هذه بعض نشاطات الاتحاد ، ستعرض بتفصيل ، في الجلسة العامة ، غدا .

انها نشاطات ، يمكن أن تعد عادية ، اذا اعتبرت في حد ذاتها ، أما اذا اعتبرت في منظار عام ، وعلمنا أنه لا ميزانية لاتحاد كتاب المغرب ، وأنه ليس من بين المسؤولين عنه من هو متفرغ ، تحققنا أن عملهم جهاد من أجل الثقافة وتمجيد للفكر .

أيها السادة :

بقي علي أن أعطيكم الخطوط العريضة لمشاريع السنة المقبلة ، كما هيأها المجلس الحالي ونرجو أن ينجزها المجلس الجديد :

1) العمل على تمتين الروابط مع كتاب ليبيا وتونس والجزائر .

2) ان يصبح صدور آفاق منتظما ، وان تكون اعداد السنة 10 لا 6

3) تحقيق مشروع تعاونية لنشر آثار الكتاب والشعراء المغاربة (وستناقش اللجنة الثانية هذا المشروع) .

4) تأسيس مركزين ، أحدهما على الشاطئ والثاني بالجبل يأوي اليهما كل مثقف في حاجة الى استجمام أو الى خلوة للتأليف .

أيها السادة .

ربما لاحظ بعضكم تناقضا بين حالة الاتحاد الذي لا ميزانية له ، وبين المشاريع الضخمة التي ينوي القيام بها .

نعم ، هناك تناقض ، وقد عشناه بوعي ، منذ زمان . فاسمحوا لي ، بهذه

المناسبة ، بأن أنقل فقرات من الكلمة التي ألقيتها في أحد مهرجانات الاتحاد عساها تكون ذكرى وتذكرة :

للمغرب فنانون وكتاب ، ولكنهم مغمورون ، فأمتنا ، بالتالي ، مبخوسة حقها فيهم ، فليسوا جهاز تنوير وتوعية ، في الداخل ولا لسان صدق لامتهم في الخارج .

ومن يزر هذا الوزر على حساب الامة المغربية وحقوقها الفكرية ؟

المسؤول الاول : هو الكاتب ، هو الفنان ، هو الشاعر ! لانهم مكمشون، ينتظرون . ومهما مر من الوقت سينتظرون مجيء (جودو) ! ينتظرون أن «يعتنى بهم ! » ، أن يبحث عنهم ، أن يتوجوا قبل أن يبدعوا ! ... انها نزعة اتكالية اعتذارية تشكك في مستوى انتاجهم ووعيهم للدور الذي يجب أن يلعبوه . فلنقل لهؤلاء الكتاب والفنانين : انتظروا قيام الساعة ، وكل عام وأنتم جامدون ! ...

المسؤول الثاني ، على زعم البعض هو الجمهور : انه غير مستعد لهضم ما ينتجونه . ونحن نصرح لهؤلاء الاخوان : كما تكونون ، يكون جمهوركم ! الفنان يخلق آثارا ، وهذه الآثار ، اذا توفرت على الاصالة ، خلقت هي نفسها جمهورها . تلك سنة التاريخ ، دوما وفي كل المناطق ، ولن تجد لسنة التاريخ تبديلا .

المسؤول الثالث ، المسؤول الرئيسي : هو وسائل الاتصال بالجمهور، داخل البلاد وخارجها . هذه النقطة بالذات ، تتعدى نطاق جدية الانتاج وكيفه وكميته ، كما تتعدى امكانيات الفنان والكاتب . أتمنى أن ينتبه المسؤولون الى هذه النقطة .

المغرب ليس بلاد الفلكلور والفرسفاط وحسب ، بل بلاد ممثلين ، ومغنين ، وملحنين ، وفنانين ، وكتاب ، كذلك . نعم ، نعيش أيام التقشف ، ولكن التقشف لن ينجح اذا كان على حساب الحبر ، والورق ، والفن ، والنغم . شعبنا في حاجة الى الماء و (الكسكس) ، ولكنه في أشد الحاجة أيضا الى التغذية الروحية ، الى حظه من الجمال . نريد أن تنصب شموس

الربيع في كؤوس كل مواطن ، وأن نفتل على رأس القمر الاحمر شعر العرائس السمراء ، وأن نغني ، بشفاه العسل :

« يا نسيم الورد خبر بالرشا
لم يزدني الورد الا عطشا » .

يجب أن يتناول المغربي برتقالة بلاده ، أكلا ، وشعرا ، وفي اللوحة الزيتية !

بالحاسة الجمالية ومستوى الثقافة ، يقاس نمو الامم أو تخلفها . فلنفتح أعيننا على عالم اليوم ، وعالم أمس أيضا : العصر الذهبي ، عند الاغريق ، هو قرن (بيريكليس) الذي سادت فيه الفنون الجميلة ، والندوات الفكرية ، والمدارس الفلسفية . وأوج الحضارة العربية الاسلامية هو عصر المأمون ، عصر بيت الحكمة والتيارات الفكرية الزاخرة بالمتناقضات المبدعة . وان أحسن عصر عرفته إسبانيا المسلمة ، لهو العهد الذي كان بيت الخليفة بيتا لسياسة أمور الامة ، وبيتا للأدب والفلسفة ، أيضا .

انه لقمين بنا الا نحط الفن والفكر عن مستواهما ، حتى لا نقع فيما وقعت فيه الامم التي تسبقنا .. في التخلف ، وفي مثل هذا لا يتنافس المتدبرون . كثيرهم المنتجون ، في ميادين الفكر والفن ، الذين لا يبخلون بحماستهم وتروانهم النفسانية ليمغربوا الطقس اليومي ، روحيا ، وليجعلوا أزهار المغرب تغمز ، وشمسه تغري ، ونجومه تبتسم ، وليمزجوا بحياة الشعب المغربي الحان الخلود واخضرار الحياة الزهية . أيجوز أن يحترق كتابنا وشعراؤنا وفنانونا لتعب رئحة «العود القمري» وماء الورد ، في كل بيت هنا ، وليحمل التاريخ نغمات مغربية الى العالم ، ومع ذلك يوجد من يتهمهم بالجمود ، ومن يعاملهم باللامبالاة ؟

يريد الفنان ، و ريد الكاتب ، أن يعطى حقه من المواطنة ، أن تعطاه الفرصة ليلعب دوره .

انه وضع غير سوى . قد نمجد ماضينا ، فنكتب عن بعض جزئياته ، وهذا شيء حسن ، ولكننا جعلنا حجابا بين التاريخ الذي نحياه الآن ، وبين

كل مواطن تسول له نفسه أن يسهم في سير هذا التاريخ ! نعم ، نهمل المعاصرين ، رغم أصالة بعضهم وما تحمله امكانياتهم من آمال عراض .

فمثلا كتاب «النبوغ المغربي» لعبد الله جنون ، وقطعة «المتشرد» لعبد الوهاب أجومي ، وبعض لوحات اليعقوبي لمن أعظم سفارتنا الناجحة في الخارج . فسعادة السفير يمثل أمته في بلاد واحدة . أما الفنان والكاتب فيمثلانها في كل الامم ، وفي وقت واحد لدى مختلف الاجيال ، وبكيفية أشمل .

ان ما تخصصه الدولة من اعتمادات لحركات الفن والفكر عمليات رابحة، ان عاجلا أو آجلا . ولنضرب على ذلك أمثلة : حقوق التأليف بالنسبة لـ (سيمون‌دو بو فوار) أو (سارتر) أو للرسام (ديفي) ، تدر على فرنسا ، كل سنة ، قدرا هاما من العملة الاجنبية . أما أرباح فرنسا من انتاج B. B. (بريجيت باردو) فتفوق دخل سيارات الشركة الوطنية Renault العظمى ! والممثلة الايطالية S. Loren تؤدي أكثر من (40 مليون من الفرنكات القديمة سنويا) من أجل الضرائب وحسب ، على مدخول يبلغ مليارين وثمان مائة مليون فرنك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ربما يلاحظ بعضكم أن هذه مقارنات مع وجود فارق . نعم ، ولكن الفارق يزول لا محالة أن أعطي فنانونا وكتابنا الفرصة ليعرفوا بامكانياتهم، كما حصل للمواطنين المرموقين ، في كرة القدم ، مثل اللاعبين العالميين ابن مبارك وعلال ومثل الغازي في العدو .

أيها السادة :

اننا نتمتع بحرية القول ، وهي نعمة نرجو أن نحسن ممارستها لنطالب بحقوق مقدسة ، كما نشعر باننا مطالبون بواجبات مقدسة . وسننجح ، بل قد نجحنا ، حيث أن عاهل البلاد الحبيب ، أبقاه الله ذخرا للفكر وللوطن يسبغ على مؤتمرنا رعايته . فلقد وجد صوتنا عنده كامل الصدى المثمر . ولا عجب ، اذ جلالته جمع المجد من اطرافه : اتقن الثقافة العربية الاسلامية بعمق ، وحذق الثقافة الغربية ، آخذا الحكمة حيثما وجدها ، فكان

عـلى مستوى الاحداث ، وانطلق يؤدي رسالته العظمى فيما يرفع منار الفكر والثقافة ، ويحقق الخير للعروبة والاسلام .

ذلكم ، أيها السادة ، أسـاس آمـالنا وسنـدنا في المسيرة ، الـى الامـام ، دائمـا الـى الامـام .

أيـهـا السـادة :

باسم اتحاد كتاب المغرب أرحب بضيوفنا كمـا أشكـركم جميـعا ، سيـداتي وسادتي ، على مشاركتكم في هذه الجلسة وأعلن افتتاح المؤتمر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمد السرغيني

مجموعة «النار والاختيار»

ان قصص هذه المجموعة ، عبارة عن تهويمات غنائية ، وتراتيم شعرية، تحاول في اطار مجموعة محددة من الكلمات ، أن تجعل من القصة شعرا ، ومن الشعر قصة : فهي تهمل الوصف الخارجي للابطال أحيانا ، وتعوضه ببحث دائب في نفسياتهم ، حتى ليخيل الينا أنها تشيؤهم ، فتكون بذلك قريبة الى اتجاه مدرسة الرواية الجديدة . وهي في أحيان أخرى ، تعاملهم كأناسي ، وتجعلهم يتحركون بطريقة مدروسة مسبقا ، تلائم مناخ قصصها ، حتى ليخيل الينا أنها تستجوبهم بدل أن تصفهم ، أو أن تجعلهم يتحركون وفق واقعهم ، فتكون بهذا قريبة الى البلزاكية . وهي في أحايين ثالثة ، تعاملهم من الخارج ، معاملة الوصاف لدخائل الباطن ، حتى ليخيل الينا أنها « بروستية » أو « دستوفسكية » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبكلمة مختصرة : لا يمكن لقصص المجموعة أن تنعت من حيث مضمونها بأنها ذات اتجاه معين ، لأنها تنال بغيتها من روافد كل الاتجاهات. أما من ناحية الشكل ، فهي قابلة للتحديد ، وذلك أنها قصص الشعر وشعر القصص .

والحق أن قصص هذه المجموعة ، منها ما هو ذاتي ، ومنها ما هو ملتزم ، الذاتي كقصص : « النار والاختيار » ، وهذه أطول قصص المجموعة نفسا ، « والمساء الاخير » و « العد يحتضر » ، أما الملتزم ، فمنه ما كان التزامه محليا ، ومنه ما كان التزامه قوميا : فمحلي الالتزام ، قصتا : « دمعة ولا يقين » و « يا أمطار » ، وقومي الالتزام وقد استقطبته قضية فلسطين ، فكقصص : نداء الدم ، وقتلى ولا موت ، ويا يافا ، والحرب والأعماق ، و مسيح لا ينهزم .

ولقد عالجت قصصها الذاتية ، فكرة الثورة على واقع الأنثى في البلاد الشرقية الحضارة ، ان قصص المجموعة في هذا الصدد ، تريد للانثى نوعا من التصعيد الأنثوي ، نوعا من التسامي على الوضع البيولوجي المشين الذي تجد المرأة نفسها داخل سجنه ، وبسبب من ذلك ، لا تقدر على المشاركة الحضارية . بل انها في هذا السجن ، تتقبل كل الاهانات على اعتبار أنها من اختصاص جنسها . وبكل اختصار ، فبطلة هذه القصص ، ترفض متع العاطفة والجنس ، في سبيل أن تحقق انثوية بطولية ، ولذلك توجدت في قضايا سياسية كعملية تعويض . فكانت شبيهة بالصوفي الذي ينبذ الجسد عن طريق التقليل من رغباته ، ليخلص الى روحه فيسمو بها . « فضمن هذا الاطار الكمون من التمه والغلبة والكآبة والحزن ، كانت تسير ، واعترتها رغبة في أن توجد في أي مكان غير هذا المكان ، أو في ان تجد من نفسها طواعية لفعل أي شيء ، أو نوعا من الاستكانة لتقبل جريان الأيام كما هي ، أو القدرة على اقتلاع هذا الاعتياد المميت الذي يسير بالحياة في غير مجالها ، لتكون في المجال الحقيقي ، الذي يولد الظفر » .

انها حائرة ، ولكنها ترفض . ترفض أي شيء لأنها لا زالت بعد في طريق غائم لما تتحقق معالمه بعد . ومع ذلك فهي لا تتقبل الاهانات بل تواجهها ، سعيا منها للحصول على المجال الحقيقي الذي يولد الظفر ، حين تنتصر على تخاذل الأنثى فيها ، فتعطيها تساميها البطولي الذي تطمح اليه .

وفي مجال القلب ، مجال العاطفة ، هل كانت هذه القصص تصور ذلك الميل البيولوجي في الجنسين ، بنفس العفوية والحرارة اللتين تحدث أية عاطفة بهما ؟ ان عالم القلب من خلال المجموعة ، عالم عجيب : القلب الذي لا يحمل في شغافه قضية ، لا يصلح أن يزج به في غيابات حب أو عاطفة، ويجب أن يتوفر هذا للطرفين : الذكر والأنثى ، ولذلك فشلت كل قضايا القلب في المجموعة ، لأن طرفا واحدا من الطرفين ، كان يحمل قلبا وقضية ، وكان هذا الطرف بالذات هو الانثى . ولعل البطلة بذلك ، تحاول تصعيد الانثى ، بأن تجعل دوافعها العاطفية ، لا تقف عند حدود اشكل في الرجل ، بل تتعداها الى البحث عن جوهره ، وما جوهر الرجل الا ما يحمله في باطنه

من عقائد وميول فكرية . انها تقصد الى سبو أغواره قبل الدخول في مغامرة التلاحم العاطفي ، لأنها امرأة متمكنة من نفسها ، وتستطيع أن تعقلن العاطفة وتتحكم فيها .

ولقد صعب عليها أن تعثر على القلب ذي القضية ، لأن : « القلب المفتوح ، ألا يكون يحب غير نفسه » اذ « كيف لا يسعها ومعها موضوع . فالموضوع هي، وهي الموضوع . أما هو فمن يكون ؟ الرئيس الكبير الذي يسير في تيار آخر ! لكنه يملك قلبا ! انما أين القلوب التي تتفتح لما هو أعظم ، لما هو أكبر من امرأة .. ! » .

هذه «الانما» في طليعة العبارة الأخيرة ، أشعرت أن القلب ـ القضية مستحيل التحقق ، ولذلك سارعت البطلة الى رفض القلب ، رفض العاطفة ، وعوضت عن كل ذلك ، باستغراقها في قضيتها استغراقا صوفيا ، وكانت هذه القضية ، هي فلسطين ، هي بلادها . وتجلى هذا الرفض في قصة النار والاختيار ، حيث ان البطلة رفضت الانصياع الى بريق اللقب والجاه ، لأنهما كانا وشاحين يتفان على هيكل منخور من الاعماق ، لقد كان من يرتديهما انسانا بدون قضية ، كان آلة منفذة . وكان لا يستطيع التخلي عن فراغه العقيدي ، لأن الذين يخدمهم يريدونه كذلك . وهكذا وجدت البطلة العزاء في تبنيها لتلك القضايا التي تشغل بال العرب ، ومعهم بال سكان العالم الثالث، فهي قد فقدت آخر أمل في العثور على قلب بقضية .

واذا صاحبنا البطلة الى نهاية المسافة ، فاننا نجد أن هذه المواقف ، مواقفها من الرجل ، تبدو كسلسلة متراصة الحلقات ، يرتبط بعضها ببعض الآخر . انها حين رفضت وضعها كأنثى بالمعنى الحريمي الشرقي ، اتجهت الى الطرف الآخر ، فرأت أنه لا يمكن أن يفهم ثورتها الا حيث يكون انسانا بعقيدة . فبحثت عن القلب ـ القضية ، ولما أعياها البحث ويئست ، رفضت القلب نهائيا، واتخذت موقفا عاما من الرجل، كان نتيجة حتمية لعدم استجابته لما تطلبت منه :

ان الرجل الفارغ القلب ، ليس غير وعاء للا شيء . واذن ! كيف تستقيم الأمور لو أنها أراقت نفسها على مذبحه ؟ لن يكون هناك غير الدمار ، اذا

كانت الأنثى فيها تحس بأنها لم تخلق لقضاء حاجة الطرف الآخر ، فمن الصعب عليها أن تقبل مواجهته ، بل وبالتالي أن تحاوره للوصول الى حل ، وهو امكان وقوع تلاحم ابدي بينهما . فليس عليها الا أن تتحمل تبعة الرفض ، وتبعة الاختيار أيضا ، لتواجه العالم ، متحدية ثرثرته ، وعدم تسامحه مع الذين يرفضون تقاليده السطحية ، وأخلاقيته المهزوزة .

الرجل بعد أن يئست منه ، لا يمثل في عرفها الا حيوانية فظة ، اذ أنه عاجز تمام العجز عن أن يصعد غرائزه ، عن أن يلطف من غلوائه البهيمي ، ليخلو بعد ذلك الى الانساني والنبيلي والبطولي فيه . الرجل الحق عندها ، هو من يعمل على تخليد الانسان فيه ، والا فالأنثى في أحضان غيره ، لا تمثل غير وضع مضطهد ، وشرط حياتي منهار ، وتحقيق كامل لمسيطرة والغلبة والابـــادة .

ولذلك ، تحمل البطلة كل الوزر في ذلك للماضي ، فهو لا زال ناشرا ذوائبه المهنية على الحاضر وعلى المستقبل أيضا : « لو حدث انني كنت قد وعيت جرم عواطفي ، لكنت قد اتخذت نهجا مختلف ، ولكنه الماضي .. انسحاقه تحت أظلاف بؤسه خانقة ، فلم في الانتقال الى غيره مسام لنشوة، فزرعت أيامي تحت مرمى الحذاء ، ظنت أنه يستحقه : حياة رخية منداة ببذل منطرف لا مراة ، فاصبح يتطاوس بفتنة ، زوجي ... ليشحن أيامه بعبق احتراقي ، أنا المراة التي لم تعرف قط كيف تحس ذاتها ، فتكف حينا عن جعل عواطفها وحنوقها عمرها يتاكل على عتبة رجولة فظة » .

ان التقاليد الحريمية للماضي ، هي التي أباحت للرجل الفارغ القلب ، أن يتطاوس على المراة ، وان يمارس فيها رجولته ، من غير أن يهبها الفرصة، لكي تحقق المشاركة ، هذا الوضع الشاذ ، هو ما يؤرق عيني البطلة ، وهو ما يدعوها الى الثورة والرفض واختيار خط سير مناضل للمتعارف المتداول .

ولقد عالجت أغلب قصصها الملتزمة ، قضية فلسطين ، معالجة العاطفة المتمرد ، معالجة الذي يعايش الأزمة من البعد القريب (البعد الجغرافي ، والقرب العاطفي) : فهناك توتر عاطفي ناشيء عن النكسة ، وهناك حرارة صدق أغدقت عليها البطلة كل عنفوانها ، وبالرغم من أن معاناتها النكسة

لم تكن الا شبه مباشرة ، ولم تكن مرتكزة على فلسفة قومية تستمد روحها من هذه الايديولوجية أو تلك ، فان دعوتها الصادقة الى جعل الحرب قانون هذه الأيام ، ونداءها الصارخ : بأن القتل بالقتل ، والتفافها حول زنود الفدائيين وبنادقهم الرشاشة ، شيء يجعل النهاية التي انتهت اليها هذه البطلة في مسيرتها نحو ايجاد حل للمشكلة ، أمرا منطقيا . وبالفعل ، فان ما أرهصته هو ما يحدث الآن في فلسطين .

ولا تقف البطلة عند هذه النتيجة فقط ، بل تتعداها الى التبشير بفعالية العلم والتقنية في انجاح المشاريع الانسانية ، وفي استرجاع الحقوق . فاسرائيل المعتدية ، انتصرت بالزيف وبالتقدم التقني ، أما نحن ، فقد تتوقعنا عند حدود عدالة مطالبنا ، وقعدنا نحلم بقيام عالم مثالي ، ينتصر للحق الضعيف على الباطل المتجبر . ولكن قانون القوة ، أباد هذه المثالية فينا ، وجعلنا ننحدر من حيث أنجح خصومنا ، ولذلك ، تستنتج البطلة أن المثالية لم تعد سلاحا ناجحا ، فلا بد للنصر من التقنية والعلم ، ولكنها حين ألحت على ذلك ، نسيت عاملا مهما في القضية ، وهو تبشير العالم بعدالة قضيتنا ، ودحض مزاعم خصومنا ، تلك المزاعم التي عملوا على ترديد دعائمها في الادمغة ، بعد أن اعترفت أوربا بتطرفها ولا انسانيتها وهي تناهض السامية في شخص اليهود ، أن خصومنا استغلوا عقدة الشعور بالاثم عند أوربا اتجاههم ، فانطلقوا من هذا المنحى معيتين في انسانيتنا فسادا . بل انهم ذهبوا الى حد أن اتهمونا بالنازية الجديدة . لاننا في عرفهم ، نعمل على ابادة نسل اسرائيل وحفدة (جدار المبكى) . ولعل وضعنا الدولي ، كفيل بأن يكذب هاته المزاعم : فان من لم يستطع أن يهب الحرية الكاملة لنفسه ، بحيث يسود على اقتصاده ومصائره ، لا يستطيع أصلا أن يبيد جنسا بكامله .

واذا كانت البطلة ، لا تقف موقفا ايديولوجيا معينا من القضية ، فانها على الأقل ، قد اهتدت الى الحل الصحيح ، وهو ان فلسطين ، لا يحررها الا أبناؤها . لكن ! كيف يتم ذلك ؟ لا شك أنها أجابت عن هذا السؤال سابقا ، وذلك ، حين دعت الى الحرب بالرشاش والعلم والتقنية . ففي قصة (مسيح لا ينهزم) ، تلح البطلة على أن تشترك السماء في هذه المعركة ، لأنه لا انتصار بغير ايمان بهذه السماء ، وبهذا تكون قد حددت موقفها من الايديولوجيات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأرضية كمبادىء ثورية ، لكنها لا تستطيع ان تتنكر لبعض مفاهيمها الستي تعتبر اساسا لكل حرب : انها تبنت بعضا من جدلية الماركسية لما دعت الى حرب في حدود العلمية وحتمية التاريخ :

« أنت وأنا وسعد ، عربون التصميم في الزمن ، وما الموت اذا لم يكن وسيلة » ؟ ان الموت وسيلة للانتصار على الطغيان ، من أجل انجاح القضية ، هو حتمية التاريخية ، هو قدرنا الذي وجدنا من أجله في هذا الظرف بالذات . « أما سعد ، فلن يكون غير سائر في وهج المعركة قدر كل سعد .

وبالطبع ، فان هذه الدعوة لم تنال من البطلة ما تستحقه من التحليل والتعميق ، على حين أحت على فكرة الايمان للانتصار في الحرب ، كعنصر أساسي وضروري .

ويبدو لي أن اختيارها للقضية ورفضها للعاطفة المحاطة بسياج سياسي كان ناشئا عن تصميم مسبق ، وعن وعي تام بالطرفين اللذين وضعتهما أمامها لاختيار أحدهما ورفض الآخر ، وان لا يكون هذا الاختيار الناشيء عن شعور بالمسؤولية وبشروطها النهائي اختيارا وجوديا يبدو أنه لكذلك .

وعلى كل حال فالملامح الايديولوجية في هذه المجموعة تبدو مغلقة في غموض ناتج عن هضم وتمثل ضئيلين ، وهذا باستثناء المنحى الاسلامي فيها ، فهو واضح تمام الوضوح ، لان الكاتبة لم تحجم عن ادماجها لبعض آيات قرآنية ضمنتها حوارها أو سردها ، وهذا ما يفسر اتجاهها الاغلب الاقوى ، والحق أنها لحجت الى حد ما في أن توفق بين تلك الايديولوجيات السابقة وبين الاطار الاسلامي الذي وضعته هيكلا لهذه المجموعة .

ولقد عالجت بقية القصص الملتزمة أيضا قضيتين محليتين ، هما : جفاف الأرض وجفاف الأدمغة ، وفتور السواعد التي تصنع الثورات ، وقضية التجنيد الاجباري .

ففي قصة : يا أمطار ! التي هي قصة رمزية ، استغلت الكاتبة حادث الجفاف الذي جثم على بلادنا مدة سنتين اثنتين ، وقضى على الخضرة

والربيع فيها ، استغلت الجفاف لا لتدين سياسة أتبعية التي فضحها هـذا الجفاف ، ولا لتعكس الـوضع البشري المزري للفلاح المغربي ، وهو يتبلـغ بما في فمه من ريق ليسكت ظمأ البطن وظمأ التربة ، ولا لتدين سياسة سدود بـدون سدود ، ولا لتحاكم وضعا مهزوزا يتعرى زيفه كلما غضبت الطبيعـة عـليه . بل تسـاءلت عوض كل هذا ، عن الثمن الذي دفع في مقابل ذلـك الوابل الطحيني الأبيض الذي يحمل علامة الدولار ، بل انها تركت كل هـذا لتنزع عن الجفاف فعالية الواقع ، بحيث أحالته الى رمز . وأعترف أن هـذه القصة كانت أكثر قـصص المجموعة حبكة وفنية ، ولو أنها اعتمدت جـانب الـرمز : أن الكاتبة قد استعملت الجفاف في معنى الشلل والعقم ، وسـواء كان في التربة أم في الفكر أم في الساعد : جفاف التربة يولد العقم ، وهـذا يولد الجوع . وجفاف الفـكر ، يولد المحاكاة ، وهذه تقتل حاسة الابـداع . وجفاف الساعد يولد الشلل ، وهذا يقضي على الامل في امكان قيام حـركة ثـورية تعيد تصحيح الاوضاع .

واذا كان الجفاف حالة تدهـور ، فالامل معقود على انتهائها ، لتتلوها حـالة تفتح ، ولذلك ، فالامطار هي التي ترحم ما اصدعته القحولة . الأمـل معقـود عـلى مجيء المطر الثورة ، بعد أن تفاقم طغيان الجفاف الذي هـو ركود وتقبل للمهادنات والخذلان . ان الكاتبة تعالج الموضوع بشفافية الرمز ومرونة التعبير الشعري ، وتنتهي في الاخير الى أن تبتهل الى المطر المنتظر، أن يغدق علينا من شـآبيبه ، فالحلوق قد تقطعت أوصالها وأذبلها العطش . وهي حين تقف عند حدود الابتهال ، تسيء الى الثـورة ، تلك التي يؤتى بـها ولا تجيء عفو الخـاطر ، أي أنها تنقل هذه الثورة من مجالها الجـدلي العلمي الذي يجعلها نتيجة حتمية لتدهور الأوضاع وفساد القيم الارضية ، الى مجال تغزلي يكاد يكون شبيها بنداء المحبين المفجوعين بالقطيعة . وهكذا ، فـاذا كان الرمز أجمل ما في هذه القصة ، فهو أسوأ ما فيها أيضا : أجمل ، لأنـه شحن مادة الجفاف بطاقات تعبيرية هائلة ، وأسوأ ، لأنه حرف الثورة عـن اطارها العلمي ، الى اطار الابتهالات والشعر والغـزل .

وتعالج قصة : « دمعـة ولا يقين » قضية التجنيد الاجباري ، وتـدور بشكل حوار تقائضي يمثل فيه أحد المتحاورين وجهة نظر مناقضة لوجهـة

نظر الآخر . وهكذا بني الحوار في هذه القصة بشكل هرمي ، انتهى عند القمة، بوصول المتحاورين الى نتيجة واحدة ، هي الفكرة التي تدافع عنها الكاتبة، الكاتبة التي هزمت أحدهما ، ونصرت الآخر ، لصالح هذه الفكرة بالذات . والواقع أن هذه القصة ، اذا عكست رأيين متناقضين ، أحدهما بورجوازي لا يرى التجنيد الا وجهه الأتم وهو الموت ، والآخر وطني يرى فيه تمريسا للناس على الدفاع عن الوطن بصورة عملية ، وانتهت الى تجنيد التجنيد ، فانها نظرت الى الموضوع كنظرية مجردة لا كواقع مغربي ، ولا فلو قارنت فكرتها عن التجنيد بواقعنا ، لخرجت بنتيجة حتمية مغايرة .

ذلك أن فكرة التجنيد ، نزع منها الجانب الانساني ، جانب المشاركة والوعي الوطني ، وجعلت طريقة لاهانة (المتمردين) الذين يقفون من أنظمتهم في الضفة الأخرى . ثم ان التجنيد ما هو الا خدمة لنظام ما ، أفلا يكون من الاليق أن يوضع هذا السؤال حين يكون الانسان على وشك التجنيد : لحساب من أجند ؟ هذا السؤال نفسه ، طرحه كثير من المجندين الفرنسيين ابان حرب التحرير الجزائرية ، فاختاروا على ضوء جواب شريف رفض خدمة ظالم لا يحقق اهداف اغلبية الناس . لا يزال المئات من الامريكيين المجندين يطرحونه على أنفسهم ويجيبون بالعصيان فيرفضون حمل السلاح ضد الفيتناميين ، او يتقلبون على بلادهم بان يقفوا مع هؤلاء المناضلين ، اذا هم أجبروا على التجنيد .

ان الحوار الساذج حينا ، والرصين حينا آخر ، ذلك الذي يستقطب هذه القصة ، ليجعل منها وسيلة دعاية أكثر من عمل فني مبدع ، لأنه لم يستطع أن يرقى الى الدرجة التي الفناها في حوار القصص الأخرى .

وينبغي أن نشير من آخر دراستنا لأفكار المجموعة ، الى أن الكاتبة جعلت اليهود في قصتها : مسيح لا ينهزم ، برىء من صلب المسيح ومن دمه ، وجعلتهم يبيتون صلبه وقتله ، وعادت فحملتهم تبعة دمه ، وهذا يعني أنها جعلت المسيح يعود في شخص تعاليمه المهدورة في القدس ، فيجد أن اليهود ان قتلوه عمليا في الماضي ، فهم يقتلونه فكريا في الحاضر ، والفكرة جميلة ، رغم أن المنطق الاسلامي ، ينفي أن يكون قد حدث شيء اسمه صلب المسيح. وبصفة عامة ، فمسيح هذه القصة ، مسيح غير مسالم ، لانه لا يرمن بالآية

التي حملها : « من ضربك على خدك الأيمن فادر له الأيسر » . وهو غير خال من الذنوب ، لأنه لا يستطيع أن يقف في وجوه الخاطئين قائلا : من كان منكم بلا خطيئة فليرجمني بحجر . ولكنه مان مسيحا مهزوما واعيا لهزيمته، عاملا على القضاء على أسبابها ، متوصلا في الأخير الى الانتصار النهائي، الانتصار الذي لا يعرف الهزيمة . ولذلك ، كان مسيحا حسب مقياس العصر، فصلته القصة من مجموعة من المثاليات تبدو متنافرة في الاول ، ولكن هذا التنافر ، يخدم فيها أخيرا فضيلة الانسجام والتناسق ، حيث لا تبدو شخصية متكاملة الا وهي تحتضر . ان هذا المسيح يمثل مرقعة ذات الوان غزيرة فاقعة، ولكنها تعجب الناظر حين يكثر من التحديق اليها ، لان عناصر الغرابة ، يلطف من فقاعة ألوانها .

والحق أن هذه القصة حين صنعت هذه الشخصية بهذا المقياس المتخيل، كانت تحتم علينا أن ندمجها في اطار القصة الرمزية ، أو القصة التنبؤية ، تلك التي لا تحب أن ترى عالم المستقبل الا في اطار أكيد من المثاليات ، يتحول فيها الانسان الى ملائكية مستمرة ، أنها من هذه الناحية ، جمهورية افلاطونية صغيرة ، بكل ما فيها من سذاجة وثقة بالمستقبل ، وايمان بالانسان.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واذا كان هذا المسيح لا بد له من رسالة ، فان القصة تقترح أن تكون رسالة أرضية ، ولكن أرضية هذه الرسالة ، ستكون شيئا عجيبا . ستكون مدعوة الى أن تمزج بين الماورائي والمادي ، بين الأسطورة وسلطة الواقع ، بين رهبة الخيال وتوقع نتيجة الغيب ، وبين عنف اللحظة الراهنة وما تحتمه من انجازات وحلول في منتهى الواقعية والمادية . وهذا ما يجعلها ظاهرة التناقض .

أما فيما يتعلق بالشكل ، فاننا نلاحظ أن السمة الغالبة عليه هي الغنائية ، تلك التي تبدو متراصة في بنائه اللغوي العام . انها تعكس الانفعال والتوهج ، وشحن الكلمات بطاقات غزيرة من الايحاء ، وتنقل القصص من جو المباشر الى عالم القلب ، عالم الذات المنفعلة المتأثرة المؤثرة . ومع ذلك ، فغنائية المجموعة ، لا تسير في خط واحد من التريث والسيطرة الجزئية على الكلمات ودلالاتها ، بل انها لتعكس بعض المبالغات الخافتة المتكلفة ، بشكل تضيع معه نصاعة الأسلوب . ولعل هذا ناتج عن اطلاق العنان للانفعال حال

الكتابة ، والا فلو الجم ، لاختفت منه تلك الأصباغ المسطحة الغير النافذة الى العمق .

وهناك خاصية أخرى ، تقوم عليها غنائية الاسلوب ، تلك هي اللقطات الشعرية : انها تبدو في ذلك الحشد الضخم الهائل من الصور ، أحيانا تكون متزنة ، وأحيانا أخرى تكون مترجرجة . ذلك الحشد من الصور النائمة على أساس من مجازات ولمسات تعبيرية خفيفة ، ولمحات رمزية بطيئة الوقع والجرس تارة ، وعنيفة التعبير أو متكلفة تارة أخرى .

ان القصاص أحسن ما يكون أسلوبا وهو شاعر . لأن الشعر الذي هو انفعال مطلق ، يعرف كيف يلجم عنف الوجدان ويجده في اطار من الكلمة المعبرة والجرس التركيبي والايقاع الرصين . من أجل ذلك ، كان الشاعر أقدر من غيره على التحكم في مصائر الكلمة ، واخضاعها للتناغم مع اللون والخط والشكل في التصيدة ، فاذا تحول من الشعر الى القصة ، فان غريزة التحكم في الكلمة ، تبقى من خصائصه ، وهكذا يعطينا قصصا شاعرية في أسلوب شعري رصين ، لا يفقد قدرة الشعر الايحائية ولا يضيع تقنية القصة ، ولذلك ، يبدو هذا التفاوت الأسلوبي في المجموعة ، على شيء واحد ، هو أن القصاص لم تتخل بعد عن الطرق التقليدية في القص ، بل ولجته مباشرة.

ومن المؤكد أن أسلوب الجمل القصيرة التي تتنكر لكل أدوات الربط من عطف وحروف اضافة وأدوات تعليل ، هو الأسلوب الشعري السائد اليوم في قصص المغرب ، وخاصة في فرنسا ، فهو يقوم على أساس اللمسات الخفيفة ، تلك التي لا تقول كل شيء ، لانها تدع الفرصة أمام القارئي ، ليقوم بعملية المشاركة الابداعية . وليتم ما كان الكاتب قد هدف اليه حال الكتابة .

ان أسلوب المجموعة ، موزع بين هذا الأسلوب ، وبين أسلوب آخر ، تطول فيه الجمل عن طريق تلحيم أجزائها بأدوات الربط السابقة الذكر ، أو باستعمال أسماء الاشارة والموصول ، فهو في الأول خفيف معبر عنيف حين يجب العنف ، وضيء في لمساته ، يفيء على القصة البطء اللازم حين يتطلب السرد والحوار ذلك . ولكنه في الثاني : يوقف نفس القارئ عند أمكنة من الجملة لا يجب الوقوف عندها ، لأن طولها يحتم متابعة التلقي ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اذ المعنى لا زال لم يتم ، وهكذا يضيع الجرس والتوازن بالنسبة الى هـذا القاريء . وهناك ظاهرة أخرى في هذا النوع من الأسلوب في قصص المجموعة ، تلك هي اطالة الجمل عن طريق تداخل المعاني فيما بينها : يتطلب المعنى الرئيسي في الجملة معنى ثانويا ، وهذا بدوره يقود الى معنى آخر، وحين ينتهي ، نجد أننا ازاء ترابط أدعى الى التعقيد منه الى السلاسة .

والحق أن التقنية القصصية تتفاوت في المجموعة ، فمن حيث تصعد صعودا ابداعيا في قصة : يا أمطار ! ، أو تأخذ نفسا سرديا متقطعا في قصة : النار والاختيار ، أو تختفي في ضبابية التداعي في قصة : يا يافا ! أو تتسربل في تراتيل شعرية غنائية في قصص : نداء الدم ، وقتلى ولا موت ، ومسيح لا ينهزم ، تنزل نزولا مباشرا في اللهجة والتعبير ومباشرة القصد ، من قصة : المساء الأخير ، والحرب والأعماق ، وذلك ناتج عن غموض أسلوبهما . أو تتسدج حين تعبر عن الرصين بالمتهافت ، وعن العادي بالخطير في قصة : دمعة ولا يقين ، أو تضعف ضعفا اشفاقيا حين تفقد أحداثها توالي الواقع ، وتسلسل الحدث في قصة : العقد يحتضر .

والسرد والحوار ، يتعرضان لكثير من الرجات والتصدعات ، فمن حيث ينعدم السرد أو يكاد في النار والاختيار ، والحرب والاعماق ، ومسيح لا ينهزم ، يكون الحوار قد طغى على بعض القصص ، أو انعدم في بعضها الآخر ، واذا انعدما معا ، كما هو الشان في قصة : الحرب والأعماق ، أو انعدم أحدهما ، فان الكاتبة تعوض هذا الفراغ بنوع من تحليل نفسي لا يقوم مقامهما . ومع ذلك ، فهي حين تجنح الى الشعرية ، لاخفاء هذا النقص ، تجعلنا ننفعل معها حيث تساهما في غمرة هذا الانفعال .

ولعل انعدام السرد ناتج عن أن قصص المجموعة لا تعكس حوادث ولا أشخاصا للواقع ، وانما هي لقطات ونماذج بشرية فقط ، لا تزاول العيش ولا تتحرك وفق مجموعة من العادات والتقاليد ، لأنها مجموعة من التركيبات النفسية المتنافرة ؛ كذلك ، فان الحوار المعاس لا يمكن أن يتجاذب طرفان مصهوران على مقاس متخيل ، وليس على مقاس الواقع . ولذلك انعدم عامل المنطقية في هذا الحوار ، في أغلب القصص ، أي أن الحوار الرائج بين طرفين ، ينبغي أن يأخذ صيغة الايجاب والسلب ، صيغة الأخذ والرد ، صيغة

التضاد . بحيث يقف الطرف الأول موقفا مضادا من موقف الطرف الثاني ، وذلك لأن أغلب قصص المجموعة قصص فكرة . أما التعويض الذي نجده ، عن غياب هذه المنطقية في الحوار ، فهو أن القصص حين تعرض مجموعة من الأبطال المشوهين نفسيا يغمرهم الاقتناع بما تهدف اليه القصة ، تجعله أمام معرض متنقل لنماذج بشرية مصنوعة حسب الهوى ، وفي ذلك ماضيه من الامتناع .

ولا ينتهي الحوار في مسيرته الهرمية الى الاقتناع والاقتناع ، وانما يركد في أولى خطواته ، ويتحول الى نوع من الترديد على أفواه الأطراف المتحاورة بصور مختلفة . فهو على هذا ، حوار مسبق ، وهو ما يحمل فيه حوار الطرف الأول جواب الطرف الثاني . ولعل هذا ناتج أيضا ، عن أن كثيرا من ابطال قصص المجموعة ، يجدون انفسهم في محيط أحداث تحتم عليهم أن تكون لهم مواقف متشابهة ، فلا داعي الى تضاد ولا الى سلب ولا الى ايجاب . نعم ، هناك بعض القصص ، كالنار والاختيار ، حيث تحتم أرضيتها أن يكون فيها موقفان : متضادان . (موقف البطلة وموقف البطل) ، في هذه الحالة ، اما أن ينعدم الحوار أو يكاد ، أولا ينعدم ، ولكنه لا يأخذ طابع المواجهة والمباشرة ، بل يتخفى في اطار من الرمز والايحاء وصلابة العناد والاقتناع الفطري .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويمكن أن تقسم قصص المجموعة من حيث أهدافها الى قصص تتغلب فيها الفكرة على الاتجاه النفسي ، أي أن الفكرة بحضورها فيها ، تسجل خدمة ممتازة للجانب النفسي ، والى قصص يتغلب فيها الجانب النفسي على الفكرة ، أي أن الجانب النفسي يسجل بحضوره فيها خدمة ممتازة للفكرة. فالقصص الأولى ، كالنار والاختيار مثلا ، حيث أن بطلتها قدمت حالتها النفسية المعقدة ، خدمة جلى لفكرة القصة ، وهي أن الأنثى الحقيقية ، من ترفض المظاهر الزائفة البراقة ، من أجل أن تصنع بطولة ما ، بطولة وطنية أو قومية . أما القصص الثانية ، فكقصة : الحرب والاعماق مثلا ، حيث أن بطليها معا ، كانا في وضع نفسي منهار بسبب فجيعة فلسطين ، ساعد هذا الوضع النفسي على بلورة الفكرة التي تنتهي اليها القصة ، وهي أن الحب ، يجب أن يتجاذل اذا كانت هناك قضية .

وبصفة عامة ، فالقصص الفكرية في المجموعة ، لا تعكس فكرة أو مجموعة من الأفكار يرتبط ما قبلها بما بعدها ، حتى توضع في باقة متماسكة، تصلح لأن تكون موقفا ايديولوجيا متناسقا . انها مزيج من الأفكار : منها الثوري ، ومنها الانساني ، ومنها القومي ، ومنها المحلي ، منها المومن ومنها المرتاب ، ولكنها تقدم الينا في وعاء من الصلابة والتحدي ، بل والعناد في بعض الأحيان ، الشيء الذي يبلور مقدار الحماسة والوعي والانفعال الذي كتبت به .

كذلك ، فان القصص النفسية في المجموعة ، تقوم على أساس تحليل نفسي للابطال من جهة ، وعلى عكس نفسياتهم من خلال حوارهم ، أو من خلال وصف دقيق لأوضاعهم الجسمية وهم يتحركون أو يجلسون أو يحاربون، بل انها لتقوم أيضا حتى على وصف الطريقة التي يلقون بها أحاديثهم : فهذا يرد : بنبرة احتجاج غاضبة ، وذاك يجيب : في وداعة متخفية لا تعلن عن نفسها . واذا وصفت الكاتبة الأبطال وصفا نفسيا ، فان ذلك الوصف سيطول وربما سيتعقد ، الى درجة تتحول القصة معها الى أصباغ متكلفة في لوحة رسام محدود الموهبة . ومع ذلك ، فهذا الطول ان كان يسيء الى جمالية القصص ، فهو على الأقل ، يوضح المسلك النفسي لشخوصها تمام التوضيح.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والحقيقة أن أبطال هذه القصص بالذات ، أشخاص غير أسوياء نفسيا ، ولا يعني هذا أن المجموعة تقدم لنا نماذج من الموبوئين والشذاذ وذوي العاهات النفسية ، ولكن يعني أن أبطالها ليسوا بأسوياء ، وذاك لرهافة احساسهم ، ولكونهم متعرضين باستمرار الى عقد نفسية من جراء سلوكهم سلوكا معينا ، ومعايشتهم لطوائف معينة من الناس . فهم على هذا ضحايا مجتمع تقليدي تستعبده العادات والغرائز ، ويستبد به العاجل من النعيم ، وتضيع فيه المثالية وتمسخ القيم . هؤلاء الابطال ، بدل أن يتماسكوا ليدرأوا فهم هذا الزيف ، فانهم يتقوقعون في مثالية نظرية ، في بطولية متخيلة ؛ ولا يلتحمون بالآخرين قصد تغيير أوضاعهم ، ولا يؤمنون بعمل حاسم في هذا الصدد ، بحيث لا ينخرطون عمليا في معركة صنع البطولة .

ان بطلة النار والاختيار ، تختار مواجهة الظرف ، مواجهة عملية ، وتنبذ الفكر المجرد ، حين تختار العمل في المدرسة ، أما البطل ، فكان حين

رفض المثالية والتجأ الى النفعية ، بدعوى انه لم يستطع أن يصمد امام الاغراءات التي يقدمها المجتمع المتخلف الى المثقف الجامعي ، كأن انسانا منحرفا الى السلب ، تحت دافع ضغوط غير سوية .

ويبدو أن أبطال المجموعة اذا كانوا اناثا فهم يمثلون نموذجا متحدا ذا نوازع نفسية تكاد تتشابه في كل القصص ، أما اذا كانوا ذكورا ، فاننا نجد الواحد منهم يحمل من التناقض النفسي ، ما يكاد يجعله كمرقعة درويش. وهذا ناتج عن أن الابطال الذكور متخيلون ، ولا يمثلون واقع الذكور كبير تمثيل ، أما الاناث ، فهن يمثلن اتجاها واحدا ، اتجاه الثورة والرفض ، ومن هنا يصح أن نقول : انهن استقين من ارضية الكاتبة ، في حين أن الذكور لم يستسقوا من معينها كطرف آخر ، بل من مجموعة من المزايا والرذائل المختلفة المتنافرة . ان اناثها أكثر قربا من الواقع ، وأكثر تحببا الينا من ذكورها .

وبمقدار ما تجهد المجموعة نفسها في تقديم قائمة متنوعة لبطلات اناث ، فانها تقدم لنا نموذجا واحدا للبطل ، هذا النموذج يدل بتناقضه وبعدم استقراره ، على أن الكاتبة لم تهضم نفسيته بما فيه الكفاية . وذلك ، لأنها تقدمه لنا ذا بناء معماري يكاد لا يستقيم : فهو عصبي ووديع ، او هو نفعي وانساني ، الى غير ذلك . بل انها لا تعطيه ما يستحقه من الوصف الداخلي، نظير ما تفعله مع البطلة . وتقدمه أيضا : لا كنموذج لسلوك معين ، ولكن كنموذج لفكرة ، ومن ثم تصنعه على مقاس تلك الفكرة ، بحيث لا يتحرك ولا يسلك الا من أطار ما وضع فيه . وهذا ما جعل قصصها مفتقرة الى الحدث .

وبعد ، لا أزعم أنني استطعت أن أضع يدي على كل ما يجب أن يلمس في هذه المجموعة ، لأنها من الخصوبة بحيث تحتاج الى دراسة متفردة ودقيقة ، أما ما قمت به ، فلا يعدو أن يكون مجرد ملاحظات عنت لي وأنا أقرؤها . والحقيقة أن هذه المجموعة بما تعكسه من صدق وجدان ، ونبل دافع، وقدرة طيبة على الخلق ، لتضيف رصيدا مهما الى تاريخنا الأدبي المعاصر، بل انها لتدل على أن القرائح ما فترت وأن الهمم ما جفت .

باريس ـ محمد السرغيني : 3ـ2ـ1969

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رشيد بنحدو

(أليخو كاربونتي): الروائي

طبيعة متوحشة غير مستكشفة ، تتصارع وسطها المدنية مع البدائية، والأفكار الأوربية مع الواقع القومي ، والطموح الثوري مع الانظمة الأوليغارشية : هذه الشروط النوعية ـ التي هي شروط أمريكا اللاتينية كلها ـ تشكل الاطار العام لأدب الكاتب الكوبي Aiejo Carpentier

+ + + + + +

وأليخو كاربونتي (موضوع هذا المقال التعريفي) رشحته أعماله الروائية غير ما مرة لنيل جائزة نوبل . وهو الذي قال في أحد الاستجوابات : « ان ما أردته في قصصي هو ازالة الغرابة (déséxotisation) عن الادب اللاتينو ـ امريكي ، دون أن أقطع جذوره » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولد في لاهافانا سنة 1904 ، من أب فرنسي وأم روسية . استهل نشاطه الثقافي بالصحافة ، حيث كان في 1924 رئيس تحرير مجلة Carteles غير انه اعتقل لمدة سبعة أشهر في 1927 ، وذلك لتوقيعه بيانا سياسيا ضد الديكتاتور (Marchado)بعدها غادر كوبا بأوراق مزورة : أوراق صديقه الشاعر الفرنسي (Robert Desnos) فنزل بباريس ، حيث عايش الحركة السوريالية فترة طويلة ، فتأثر بها في البداية . ويعود الى كوبا في 1936 ، ليغادرها بعد سنة الى اسبانيا ، ثم فرنسا ، ثم المكسيك . من جديد ، يعود الى بلده سنة 1939 ، حيث عمل في الاذاعة . بعد ذلك ، ظل يتنقل كثيرا عبر اقطار امريكا اللاتينية واوربا . الى أن استقر نهائيا في بلده ، سنة 1959 ، غداة انتصار الثورة الكاسترية . وهو يشغل حاليا منصب مدير دار النشر الوطنية ، وممثل كوبا لدى المؤتمرات الثقافية والاوفاق الدبلوماسية .

ألف كاربونتي كثيرا من القصص ، ترجم معظمها الى الفرنسية عند

حياته السابقة في نيويورك . لكنه سرعان ما يحس بحنين عميق الى النهر ، الى العودة الى المنابع مرة ثانية . لقد أصابه النهر في صميم قلبه . لكنه لن يستطيع العودة ، «لأنه فقد مفتاح وجوده الأصيل» كما يقول الكاتب . ان الفكرة التي نخرج بها من هذه القصة هي أنه يستحيل على الانسان أن يعود الى ما كان : ان طفلا أو بدائيا . وبذلك ، سيظل ذلك الفردوس الأصلي ، الذي يحلم به الكبار و «المتحضرون» ، محرما الى الأبد .

ان اهتمام أليخو كاربونتي في هذه القصة لم يكن مقتصرا على رصد العادات في المجتمعات البدائية ، أو على البحث في نظرية أصول الموسيقى. بل تعداه الى قضية تمازج الأجناس والثقافات في القارة اللاتينوأمريكية ، وخاصة مشكلة «الزمن» التي تكاد تستأثر بكل اهتمامه .

+ + + + + +

مشكلة «الزمن» لازمته كذلك في قصته (الرجل المطارد ـ El Acoso) حيث يشعر القارىء بشبحه المقلق يهيمن على القصة ، خاصة وأن الاطار الزمني لهذه القصة لا يتعدى 46 دقيقة : أي مدة عزف السامفونية البطولية لبيتهوفن .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بينما يبدأ عزف هذه السامفونية في احدى القاعات المسرحية بلاهافانا، اذا برجل يدخل مهرولا الى نفس القاعة ، بعد أن رمى الى شباك التذاكر بورقة مالية تزيد قيمتها عن ثمن التذكرة ، ودونما انتظار لاسترداد الصرف . انه رجل هارب يحاول الافلات من جماعة من المطاردين كلفوا باغتياله . وينصت الرجل الى السامفونية . لكنه يعرف جيدا أن الأشخاص الذين يطاردونه موجودون معه في القاعة . وهكذا ، يعيش الـ 46 دقيقة الاخيرة من حياته ، في نفس الوقت الذي ينصت فيه الى الموسيقى . تيار وعيه ينساب في تدفق شديد ، ممزوج بنغمات بيتهوفن . سنوات طويلة من حياته ـ التي لا تتعدى مدة تذكرها بضع ثوان ـ تعود الى ذاكرة الهارب ، الذي يلهث قلقا ، والذي يبحث عن سبيل الى النجاة من الموت .

ويشاء القدر ـ «الذي يطرق على الباب» (العبارة لبيتهوفن) ـ أن

تجتمع حول البطل شخصيات أخرى . فهناك بائع التذاكر ، الانسان البئيس ، الذي تمثل عنده الورقة المالية فرصة لقضاء سويعات لذيذة في أحضان احدى المومسات . انسان بئيس قضى أياما طويلة في الانصات الى السامفونية البطولية ، تعويضا عن حرمانه الجنسي . أما قدر المومس فليس بغريب عن قدر الرجل الهارب . وهذا ما يكسب القصة وحدة عضوية.

في هذه القصة الجميلة ، نتعرف بشكل لا مباشر على لاهافانا ما ـ قبل ـ الثورة . حيث كانت بعض الفئات المسلحة ترد بالعنف على معاملات البوليس التعسفية . انها فترة كابوسية عاشها كاربونتي بنفسه، واعتقل أثناءها بسبب نشاطاته السياسية المعادية للنظام القائم .

ان جو الاعتقالات والمحاكمات واعدام الخونة ـ هذا الجو الذي يشكل خلفية القصة ـ دفع ببعض النقاد في فرنسا الى مقارنتها بقصص المقاومة الفرنسية . والحق أن (الرجل المطارد) أكثر من قصة مقاومة . لقد اعتمد فيها الكاتب بمهارة تكنيك « المونلوج الداخلي » . مما أعانه على تعمق نفسية بطله ، وعلى تصوير حياته في لاهافانا ، حياة طالب من الريف أتى الى العاصمة ليدرس الهندسة . فينخرط في الحركة الثورية . لكن رجال البوليس يلقون عليه القبض ، فيعذبونه ، ويرغمونه على فضح رفاقه . ثم يطلق سراحه . فيأتي دور اغتياله في قاعة المسرح على يد الأشخاص الذين طاردوه حتى هناك ، في نفس الوقت الذي انتهى فيه عزف سامفونية بيتهوفن ، وأخذ الحاضرون يغادرون القاعة .

+ + + + + +

وحتى يومنا هذا ، لا تزال الديكتاتورية في أمريكا اللاتينية هي بنظام الحكم التقليدي . وقد أغرت شخصية الرئيس الديكتاتوري كثيرا من الأدباء . حتى أضحت هذه الشخصية من أهم الموضوعات التي تحفل بها آداب هذه القارة المناضلة .

ولم يفت كاربونتي أن يكتب في هذا الموضوع . فألف قصته (**مملكة هذا العالم** El reyno de este mundo ان الأحداث في هذه القصة حقيقية ، استوحاها الكاتب من تاريخ (هايتي) . وملخصها كما يلي :

حياته السابقة في نيويورك . لكنه سرعان ما يحس بحنين عميق الى النهر ، الى العودة الى المنابع مرة ثانية . لقد أصابه النهر في صميم قلبه . لكنه لن يستطيع العودة ، «لأنه فقد مفتاح وجوده الأصيل» كما يقول الكاتب . ان الفكرة التي نخرج بها من هذه القصة هي أنه يستحيل على الانسان أن يعود الى ما كان : ان طفلا أو بدائيا . وبذلك ، سيظل ذلك الفردوس الأصلي ، الذي يحلم به الكبار و «المتحضرون» ، محرما الى الأبد .

ان اهتمام أليخو كاربونتي في هذه القصة لم يكن مقتصرا على رصد العادات في المجتمعات البدائية ، أو على البحث في نظرية أصول الموسيقى. بل تعداه الى قضية تمازج الأجناس والثقافات في القارة اللاتينوأمريكية ، وخاصة مشكلة «الزمن» التي تكاد تستأثر بكل اهتمامه .

+ + + + + +

مشكلة «الزمن» لازمته كذلك في قصته (الرجل المطارد ـ El Acoso) حيث يشعر القارىء بشبحه المقلق يهيمن على القصة ، خاصة وأن الاطار الزمني لهذه القصة لا يتعدى 46 دقيقة ، أي مدة عزف السامفونية البطولية لبيتهوفن .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بينما يبدأ عزف هذه السامفونية في احدى القاعات المسرحية بلاهافانا، اذا برجل يدخل مهرولا الى نفس القاعة ، بعد أن رمى الى شباك التذاكر بورقة مالية تزيد قيمتها عن ثمن التذكرة ، ودونما انتظار لاسترداد الصرف . انه رجل هارب يحاول الافلات من جماعة من المطاردين كلفوا باغتياله . وينصت الرجل الى السامفونية . لكنه يعرف جيدا أن الأشخاص الذين يطاردونه موجودون معه في القاعة . وهكذا ، يعيش الـ 46 دقيقة الاخيرة من حياته ، في نفس الوقت الذي ينصت فيه الى الموسيقى . تيار وعيه ينساب في تدفق شديد ، ممزوج بنغمات بيتهوفن . سنوات طويلة من حياته ـ التي لا تتعدى مدة تذكرها بضع ثوان ـ تعود الى ذاكرة الهارب ، الذي يلهث قلقا ، والذي يبحث عن سبيل الى النجاة من الموت .

ويشاء القدر ـ «الذي يطرق على الباب» (العبارة لبيتهوفن) ـ أن

تجتمع حول البطل شخصيات أخرى . فهناك بائع التذاكر ، الانسان البئيس ، الذي تمثل عنده الورقة المالية فرصة لقضاء سويعات لذيذة في أحضان احدى المومسات . انسان بئيس قضى أياما طويلة في الانصات الى السامفونية البطولية ، تعويضا عن حرمانه الجنسي . أما قدر المومس فليس بغريب عن قدر الرجل الهارب . وهذا ما يكسب القصة وحدة عضوية.

في هذه القصة الجميلة ، نتعرف بشكل لا مباشر على لاهافانا ما ـ قبل ـ الثورة . حيث كانت بعض الفئات المسلحة ترد بالعنف على معاملات البوليس التعسفية . انها فترة كابوسية عاشها كاربونتي بنفسه، واعتقل أثناءها بسبب نشاطاته السياسية المعادية للنظام القائم .

ان جو الاعتقالات والمحاكمات واعدام الخونة ـ هذا الجو الذي يشكل خلفية القصة ـ دفع ببعض النقاد في فرنسا الى مقارنتها بقصص المقاومة الفرنسية . والحق أن (**الرجل المطارد**) أكثر من قصة مقاومة . لقد اعتمد فيها الكاتب بمهارة تكنيك « المونلوج الداخلي » . مما أعانه على تعمق نفسية بطله ، وعلى تصوير حياته في لاهافانا ، حياة طالب من الريف أتى الى العاصمة ليدرس الهندسة . فينخرط في الحركة الثورية . لكن رجال البوليس يلقون عليه القبض ، فيعذبونه ، ويرغمونه على فضح رفاقه . ثم يطلق سراحه . فيأتي دور اغتياله في قاعة المسرح على يد الأشخاص الذين طاردوه حتى هناك ، في نفس الوقت الذي انتهى فيه عزف سامفونية بيتهوفن ، وأخذ الحاضرون يغادرون القاعة .

+ + + + + +

وحتى يومنا هذا ، لا تزال الديكتاتورية في أمريكا اللاتينية هي بظام الحكم التقليدي . وقد أغرت شخصية الرئيس الديكتاتوري كثيرا من الأدباء . حتى أضحت هذه الشخصية من أهم الموضوعات التي تحفل بها آداب هذه القارة المناضلة .

ولم يفت كاربونتي أن يكتب في هذا الموضوع . فالف قصته (**مملكة هذا العالم** El reyno de este mundo ان الأحداث في هذه القصة حقيقية ، استوحاها الكاتب من تاريخ (هايتي) . وملخصها كما يلي :

(هنـري كريستـوف) زنجي كان في بداية القرن الماضي طباخا في العاصمة الدومنيكية . نظم حـركة تمردية . فثار مع بعض رفاقه على الحاكم الـفرنسي . ثم أعلن نفسه ملكا . وضرب العملة بهذا الشعار : « اللـه وقضيتي ، وسيفـي » . أغرته مظاهر الزهو والبذخ لدى ملوك أوربا . فشيد قصرا مماثل قصر (فيرساي) في عظمته سماه قصر (Sans Souci) . ولـقـب نفسه « أول ملك متوج في العالم الجديد » . لكن هنري كريستوف سـرعان ما اغتر بعظمته . حيث تحول الى حاكم مستبد . فـعم الاستياء حـاشيته ، وشاع التذمر في أوساط الشعب . وذات ليلة ، وأمام استفحال حالة الأشياء، يثور عليه أعضاء حاشيته . ويحاصرونه في قصره . فيقتل نفسه . في حـين تندلع النيران في القصر ، وسط هيجان الشعب .

النقاد في فـرنسا ، الذين تحدثوا عن هذه القصة ، لم يلتفتوا الـى قيمتها الـرمزية . فهذا Claude Couffon مثلا يقول عنها انها « قصة عذبـة تلينها روعة الشعر والفلكلور » (2) ـ وان الكاتب أبدع في «مزج التاريـخ بالعرف ، مستغلا بشكل متساو الانسان والـقوى الطبيعية ، والاساطير ، والآلهة التي هي وليدة خيال الزنوج في هايتي » (3) . أما البطل ، فـهو هنا « غول . لكـنه غول شيكسبيري ، شخصية مسرحية تراجيدية » (4) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا التقييم الفني ، الذي أراده هذا الناقد للقصة ، اذا تـجاوزناه ، وجدنا أن الكاتب يدين بصراحة تلك الطريقة اللامشروعة التي يصل بـها معظم الحـكام الى السلطة في دول العالم ـ الثالث .

لقد استهلكت أمريكا اللاتينية ، خلال النصف الأول من هذا القرن ، ما يقرب من 500 رئيس جمهورية (5) . والجغرافية السياسية لهذه القارة ، ولافريقيا كذلك ، تدلنا على أن السبيل الكلاسيكي الى الحكم هو تنظيم انقلاب عـسكري . وستكون هذه الطريقة مقبولة لو أن هذه الفئة الانقلابية ستحـقق الأهداف والاصلاحات التي كانت تنادي بها لما كانت في المعارضة . لـكن

(2 ـ 3 ـ 4) ـ القسم الخاص بأمريكا اللاتينية في كتاب :
(Panorama des Littératures contemporaines)

(5) العدد 257 من مجلة Les Temps Modernes :

معظم التجارب دلت على عكس ذلك . فمن تركيز للسلطة العسكرية ، الى تعطيل للحريات العامة ، أى اضطهاد ممثلي الشعب ... الى غير ذلك من الاجراءات التي كانت يوما ما سبب الاطاحة بالحاكم السابق ، وستكون ذات يوم سببا للاطاحة بالحاكم الحالي .

ان هذه القصة تحفزنا الى التساؤل عن موقف اليخو كاربونتي من الثورات. ولعله يعطينا الجواب في قصته (عصر النور - El siglo de las luces) التي أثارت جدلا كثيرا ، ورشحت الكاتب مرارا لنيل جائزة نوبل .

+ + + + + +

موضوع هذه القصة موضوع كروزكي ، يتناول حالة جزر (craïbes) في ظل الثورة الفرنسية . وأحداثها تدور في بداية القرن التاسع عشر .

نتعرف في القصة على شاب اسمه (Esteban) ، وعلى بنت عمه (Sofia) يعيشان حياة مملة في لاهافانا . ويحدث أن يقتحم حياتهما زائر غريب اسمه (Victor Hugues) ، وهو تاجر من مرسيليا استقر في هايتي . فيمنح صلابة أكثر لأحلامهما الضبابية بثورة تكون كما تصورها الفلاسفة الفرنسيون في القرن الثامن عشر . لكن سرعان ما ينكشف تعارض صريح في مفهومهم للثورة . فعلى حين يعتبر استيبان وصوفيا الثورة تأكيدا للجمال والحب ، وتفتحا كاملا للانسان ، نجد فيكتور يحمل عن الثورةمفهوما تجريديا يتمثل في « النظام » و « السلوك السوي » . حتى لأنه ، على ما يبدو ، يغتصب صوفيا دونما حب أو اشتهاء جنسي . أما الفتاة ، فقد اعتبرت ذلك حدثا حاسما أتاح لها الانتقال من طور المراهقة الحالمة الى طور الأنوثة المتفتحة .

ويحدث أول صدام بين المفهوم التجريدي للثورة ، وبين القوى الحيوية التي تحركها هذه : وذلك حينما يحرق الزنوج الثائرون على البيض متجر فيكتور . مما أدى بهذا الى الرحيل الى فرنسا . فيرافقه استيبان ، الذي يشهد فرحة شعب باريس بانتصار الثورة .

وتأمر السلطة الثورية فيكتور بالذهاب الى (La Guadeloupe)

(هنـري كريستـوف) زنجي كان في بداية القرن الماضي طباخا في العاصمة الدومنيكية . نظم حـركة تمردية . فثار مع بعض رفاقه على الحاكم الـفرنسي . ثم أعلن نفسه ملكا . وضرب العملة بهذا الشعار : « اللـه وتمضـتي ، وسيفـي » . أغرته مظاهر الزهو والبذخ لدى ملوك أوربا . فشيد قصرا مماثل قصر (فيرساي) في عظمته سماه قصر (Sans Souci) . ولـقـب نفسه « أول ملك متوج في العالم الجديد » . لكن هنري كريستوف سـرعان ما اغتر بعظمته . حيث تحول الى حاكم مستبد . فـعم الاستياء حـاشيته ، وشاع التذمر في أوساط الشعب . وذات ليلة ، وأمام استفحال حالة الأشياء، يثور عليه أعضاء حاشيته . ويحاصرونه في قصره . فيقتل نفسه . في حـين تندلع النيران في القصر ، وسط هيجان الشعب .

النقاد في فـرنسا ، الذين تحدثوا عن هذه القصة ، لم يلتفتوا الـى قيمتها الـرمزية . فهذا Claude Couffon مثلا يقول عنها انها « قصة عنيفـة تلينها روعة الشعر والفلكلور » (2) ـ وأن الكاتب أبدع في «مزج التاريـخ بالعرف ، مستغلا بشكل متساو الانسان والـقوى الطبيعية ، والاساطير ، والآلهة التي هي وليدة خيال الزنوج في هايتي » (3) . أما البطل ، فـهو هنا « غول . لكـنه غول شيكسبيري ، شخصية مسرحية تراجيدية » (4) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا التقييم الفني ، الذي أراده هذا الناقد للقصة ، اذا تـجاوزناه ، وجدنا أن الكاتب يدين بصراحة تلك الطريقة اللامشروعة التي يصل بـها معظم الحـكام الى السلطة في دول العالم ـ الثالث .

لقد استهلكت أمريكا اللاتينية ، خلال النصف الأول من هذا القرن ، ما يقرب من 500 رئيس جمهورية (5) . والجغرافية السياسية لهذه القارة ، ولافريقيا كذلك ، تدنا على أن السبيل الكلاسيكي الى الحكم هو تنظيم انقلاب عـسكري . وستكون هذه الطريقة مقبولة لو أن هذه الفئة الانقلابية ستحـقق الأهداف والاصلاحات التي كانت تنادي بها لما كانت في المعارضة . لـكن

(2 ـ 3 ـ 4) ـ القسم الخاص بأمريكا اللاتينية في كتاب :
(Panorama des Littératures contemporaines)

(5) العدد 257 من مجلة Les Temps Modernes :

معظم التجارب دلت على عكس ذلك . فمن تركيز للسلطة العسكرية ، الى تعطيل للحريات العامة ، الى اضطهاد ممثلي الشعب ... الى غير ذلك من الاجراءات التي كانت يوما ما سبب الاطاحة بالحاكم السابق ، وستكون ذات يوم سببا للاطاحة بالحاكم الحالي .

ان هذه القصة تحفزنا الى التساؤل عن موقف الرخو كاربونتي من الثورات. ولعله يعطينا الجواب في قصته (عصر النور - El siglo de las luces) التي أثارت جدلا كثيرا ، ورشحت الكاتب مرارا لنيل جائزة نوبل .

+ + + + + +

موضوع هذه القصة موضوع كروذيكي ، يتناول حالة جزر (craïbes) في ظل الثورة الفرنسية . واحداثها تدور في بداية القرن التاسع عشر .

نتعرف في القصة على شاب اسمه (Esteban) ، وعلى بنت عمه (Sofia) يعيشان حياة مملة في لاهافانا . ويحدث أن يقتحم حياتهما زائر غريب اسمه (Victor Hugues) ، وهو تاجر من مرسيليا استقر في هايتي . فيمنح صلابة أكثر لأحلامهما الضبابية بثورة تكون كما تصورها الفلاسفة الفرنسيون في القرن الثامن عشر . لكن سرعان ما ينكشف تعارض صريح في مفهومهم للثورة . فعلى حين يعتبر استيبان وصوفيا الثورة تأكيدا للجمال والحب ، وتفتحا كاملا للانسان ، نجد فيكتور يحمل عن الثورةمفهوما تجريديا يتمثل في « النظام » و « السلوك السوي » . حتى لأنه ، على ما يبدو ، يغتصب صوفيا دونما حب أو اشتهاء جنسي . أما الفتاة ، فقد اعتبرت ذلك حدثا حاسما أتاح لها الانتقال من طور المراهقة الحالمة الى طور الأنوثة المتفتحة .

ويحدث أول صدام بين المفهوم التجريدي للثورة ، وبين القوى الحيوية التي تحركها هذه : وذلك حينما يحرق الزنوج الثائرون على البيض متجر فيكتور . مما أدى بهذا الى الرحيل الى فرنسا . فيرافقه استيبان ، الذي يشهد فرحة شعب باريس بانتصار الثورة .

وتأمر السلطة الثورية فيكتور بالذهاب الى (La Guadeloupe)

الأمريكية اللاتينية تنتظره (6) : وهو الارتفاع بهذه الآداب الى مرتبة « العالمية » دون تجريدها من لونها المحلي الأصيل . « عالمية » ليس المقصود بها الاستهلاك السياحي ، بل تعريف العالم بحقيقة الشعوب اللاتينوأمريكية . فكلنا نعرف الآن أن الثورات التي عرفتها هذه القارة هي ثورات جماهيرية ضد الاستغلال الأمريكي . وكلنا نعرف حقيقة تلك الأذات التي ظل العبيد المقهورون يرسلونها مدة سنين . نحن اذن أمام شهادة على الوضع في هذه القارة . وتلك هي قيمة أدب فئة من الكتاب ، أمثال: ميجيل أنخيل أستورياس (7) وكارلوس فوينطيس ، وأوكتافيو باس ، واليخو كاربونتي .

انها لثورة حقيقية حققها هذا الكاتب الكوبي في أدب هذه القارة المناضلة . ثورة قيل عنها انها تماثل الثورة الكوبية نفسها في عمقها وجدتها (8) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(6) العدد الاول من مجلة (الرائد) المغربية،

(7) الكاتب الجواتيمالي الذي كان نال جائزة نوبل لسنة 1967 ،

(8) في هذا المقال ، اعتمدت على العدد 11 من مجلة (Cuba Si)

ابراهيم الخطيب

نقد قصص العدد الماضي

في العدد الجديد من (آفاق) قصتان قصيرتان وفصل من رواية (الطيبون) وسوف نحاول في هذه الكلمة التعقيب على القصتين القصيرتين دون أن نتعرض بشيء للفصل المنشور من الرواية المذكورة لأسباب موضوعية. أما القصتان فقد كتب أولاهما (حسب ترتيب النشر في العدد) محمد زفزاف بعنوان (أنشودة المساء الحزينة) وكتب الثانية محمد أنقار بعنوان (الصيد والصخور) .

واذا كان من شيء يجمع بين الكاتبين فهو أنهما من مواليد حقبة ما بعد الحرب العالمية الأخيرة . فهما اذن شابان يملكان رؤية محدثة الى كثير من القيم التي تواضع عليها جيل ما قبل الحرب . وهما أيضا ممن نشر كثير من انتاجهما القصصي في صحف مغربية وبالاخص في جريدة (العلم) ومجلة (أقلام) التي توقفت عن الصدور منذ أشهر بعد أن تعثرت لأسباب خاصة . واذا كان (محمد زفزاف) قد نشر بعض قصصه القصيرة في مجلة (الآداب) البيروتية فان محمد أنقار لم ينشر بعد شيئا خارج المغرب وأكثر ما نشر كان في صفحة (أصوات) أولا وفي (العلم الثقافي) بعد ذلك . وهذه أول قصة له تنشر في مجلة .

(1) والاخ زفزاف قاري مخلص للأدب الفرنسي بصفة خاصة وللأدب العالمي عموما وله كتابات نقدية جادةفي الشعر والرواية . ولا يمكننا أن نحصر كتابات زفزاف القصصية تحت مذهب معين غير أننا يمكن أن نقول بأنه لا يأخذ مسألة التمذهب بحدة وصرامة . وهذا واضح جدا . فاهتماماته تضرب تارة في أعماق المشكل الميتافيزيقي (كما في قصته « الموت وما بعده » مثلا) وتارة أخرى في أعماق الذات الانسانية المواجهة بالغربة والتشتت في هذا العالم ـ مما له أبعاد بورجوازية وجودية محض تعلن تأثر زفزاف الشديد

بقراءاته الكثيرة للأدب الفرنسي على وجه الخصوص . وكلا الاتجاهين ـ مع ذلك ـ لا يغفل الظرف التاريخي والاجتماعي الذي يعكس رؤيته الملتزمة المتفاعلة مع الكون .

واذا كانت كتابات زفزاف غزيرة المضمون فهي تبعا لذلك غنية الأشكال. وهذه ظاهرة تطرح نفسها بالحاح في قصصه لانك لا تستطيع أن تجد صلة واضحة تجمع بينها فكل قصة تحمل رؤية متباينة أشد التباين عن الرؤية الأخرى في قصة ثانية . فهو كثير التجريب و (أنشودة المساء الحزينة) تعكس هذا البحث الدائب عن الشكل الذي يستطيع أن يعطي للمضمون العادي بعدا انسانيا جديدا .

لست أدري لماذا أذكر باستمرار فيلما تسجيليا قصيرا للمخرج (محمد التازي) بعنوان (6 × 12) كلما قرأت (أنشودة المساء الحزينة) ؟ ولا شك أن هنالك ارتباطات (شكلية) و (موضوعية) معينة : كلاهما تجري أحداثه في (الدار البيضاء) وكلاهما يعرض الحدث من خلال (تجزيئات) مبتسرة تشكل في مجموعها (وجهة نظر) معينة الى وضع ما . وكلاهما ـ بعد ذلك ـ يطرح قضية شديدة الصلة بوجود الانسان في العالم المعاصر مواجها بقوى غريبة عنه لكنها كاسحة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي اعتقادي أن (أنشودة المساء الحزينة) استطاعت أن تعطي لاحساسنا بالزمن مأساويته من ناحية كما استطاعت أن تعمق فينا الشعور بالهموم الانسانية من ناحية أخرى . وهي هموم صغيرة اذا قيست بموضوعية جاهدة لكنها في الواقع هي ما يملأ رتابة الزمن الانساني المنساب باستمرار اذا ما حاكمناها بمنطق الذات . هنالك تأكيد واضح على (فردية) الانسان ووحدته في هذا العالم ، رغم افتراض وجوده ـ مع ـ آخرين . فالشخصيات التي تتعاقب في القصة ـ وهي كثيرة ـ تعيش في عزلة تامة عن بعضها البعض مع أنها تلتقي في زمن واحد (الخامسة مساء) وفي مكان واحد (مقهى الاروقة) . من هموم كثيرة . مختلفة . لكنها تلتقي أيضا ـ دون وعي ـ في احساسها بالكآبة التي تحاصر العالم من كل مكان وتمنعها من تحقيق ذاتها بكيفية مسئولة . انها ـ كذلك ـ لا تتواصل ولا تبذل جهدا يذكرفي سبيل تحقيق هذا التواصل بصورة شاملة :

فماسح الأحذية عندما يمارس عملة التلميع يبدو وحيدا وهو يواجه همومه الجنسية الحادة التي أثارها رؤيته لساق أنثى ذاعمة قاب قوسين من أشواقه . واذا كان لا يستطيع أن يتجاوز هذه الهموم الى مرحلة التحقيق – التي تبدو مع ذلك مستحيلة – فان (بائع الاسفنج) استطاع أن يحقق هذا التجاوز فيعقد مع زبونة موعدا في مساء اليوم التالي عندما تكون (الشمس متكئة – ليس في الافق تماما ولكن في منطقة تقترب منه قليلا) . ومع أن الفتاة (المصبوغ وجهها بمواد كيماوية كثيرة) تملك فقد تمارس معه علاقة من نوع معين فان هنالك ستارا كثيفا من القلق والصمت وعدم الرضا تحجب عنهما امكانية الاتصال الحقيقي بعيدا عن الشكليات . ثم انهما يبدوان وكأنهما قد ابتعدا كثيرا عن مرحلة الاحساس بوجود الآخر وجودا داخليا عميقا وغاصا في ضباب الملل والتفاهة والتكرار والشعور بمسافة وجدانية لا حد لها . ان لاعب (الفليبر) يشعر بوجود الوهم بكيفية حادة لكنه لا يملك أن يتجاوزه الى الواقع الذي يحمل الخيبة وطعم الهزيمة ولهذا يستغرقه الوهم حتى الانتشاء . ويكفي أن يدوي نفير سيارة الاسعاف ليتذكر زبون كان يجلس في المقهى على الافريز زوجته التي ماتت منذ اسبوع فقط غير انه يظل مغلقا على همه ووحيدا في مقابل الفراغ المحدق به . لعل (الامريكي) الذي يجلس الى جانب (فاطمة) (ذات البطلون الابيض والارداف المثيرة والشعر الاسود) يطرح مسألة النسيان بصورة واعية جدا : فهو متزوج فعلا وله طفل واحد في نيويورك لكنه لا يستطيع أن يقنع ذاته بوجود هذه العلاقة . أما (خوان) الاسباني البليد فهو يعيش حياته تحت ضغط الرتابة من جهة وعدم الثقة من جهة ثانية : بين الميناء والمقهى يموت يوميا وليس يهمه بعد ذلك أن يقرأ في الصحف عن أخبار العالم ما دام العالم لا يعترف بوجوده . والزوجان اللذان يبدوان للجرسون سعيدين يفصل بينهما في الواقع حاجز من شعور معقد لا هو بالحب ولا بالكراهية لكنه يقترب جدا من الاحترام – وهو موقف يعلن تجمد العلاقات بينهما . أما المدرس فان لغز الموت والتلاشي والتحلل يستنزف اهتماماته الفكرية لكنه لا يكف مع ذلك عن ممارسة الحياة في تفاصيلها .

والنتيجة أن (المدينة واسعة ... ولا أحد ينتبه للآخر) .

لقد كان المشكل في (أنشودة المساء الحزينة) يواكب المضمون ويلتحم به ويعطي للعلاقات بعدها الحقيقي : ان عملية (التجزيء) كانت نابعة من طبيعة هذه العلاقات في عزلتها وانكفائها الحزين على ذاتها كما كانت تؤكد بكيفية حادة على تجاوز الزمن للانسان باستمرار ودون توقف من ناحية وعلى بطئه من ناحية أخرى . أما مستويات الحدث فقد كانت كثيرة مختلفة ـ ومتناقضة أحيانا ـ لكنها تعطي انطباعا موحدا بالعجز والكآبة واظلام المصير الانساني . ومع أن الشخصيات تنتمي الى طبقات اجتماعية مختلفة ـ وأكثرهم بورجوازيون يمارسون وجودهم بكيفية مقلوبة ـ فانهم جميعا يعانون من عدم الفعالية غير أنهم لا يعدمون وعيا (أفقيا) حزينا بوضعهم الراهن الا أنه لم يتجاوز بعد حدود اللحظة الى (تصور عام) للمشكل بحثا عن الخلاص الحقيقي.

(2) محمد أنقار يقرأ الأدب القصصي في العالم اما عن طريق الترجمات العربية خصوصا ما كان منها صادرا عن دار الآداب في بيروت أو عن طريق ما يترجم الى الاسبانية أحيانا . وهو شغوف بـ (تشيكوف) لكنه ـ وهذه ملاحظة سابقة لأوانها ـ لم يستطع أن يبلغ (موضوعيته) و (حياده) اللاذاتي في فهم الارتباطات البسيطة بين الناس وفي اختيار اللحظات الأنسب لتفجير أسرار النفس الانسانية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولقد بدأ أنقار كتابة القصة من وعي ذاتي عميق بالعزلة لكن هذا الوعي كان لا يكف عن بذل المحاولات الكثيرة والمستمرة دون انقطاع في سبيل ايجاد انسجام بينه وبين المجتمع أولا ليندمج فيهما بعد ذلك . مع أن الفنان ـ كما يقول نيتشه ـ لا يحتمل الواقع بالحاح . وهكذا كانت قصته (الشهيد) تصور هموم الذات وهي معزولة بعد وتعاني من الكبت الاجتماعي الامر الذي يؤدي الى انتحار في النهاية بعد الفشل في اتجاد (صيغة) لما يمكن أن تكون عليه علاقاته مع المجتمع . غير أن (الحزن والغربة) جاءت لتعلن انفتاح ذاته على العالم اذ تاحا يخضع للتجربة المباشرة وان كانت هذه التجربة تسفر في الأخير عن زيف العلاقات بين الناس بصورة عنيفة وباعثة على الغثيان والتقزز .

ثم يحدث التحول : فتحت تأثير ايديولوجية معينة والطلاقا من شعور حاد بالنكسة حاول أنقار أن يعلن عن نفسه في قلب الأحداث فكتب (الزلزال)

و(ألم .لاحتضار) رافضا ـ في أولاهما ـ شبكة من القيم القديمة التي هيأت لنكسة طريقها في الفكر . جاعلا من (الفعل) ـ في الثانية ـ .لحل الوحيد الممكن لا لتجاوز الاخطاء ولكن للوجود ـ فيها . ومع أن القصتين كانتا غارقتين في تعبيرية هزيلة (الامر الذي يكشف عجز أنثار عن فهم الواقع الفردي للتاريخ) فانهما ـ على الأقل ـ كانتا تؤكدان وجوده بكيفية معقولة . ولعل ذلك هو سبب عودته فيما بعد الى بحث العلاقات الانسانية في جوانبها الوجودية التي ترهص بالتغير الحقيقي الذي يبدأ من الداخل : فيكتب (عين الطفل مبللة) ملحا على غربة الانسان التي لا تعرف الحدود وعجزه عن التواصل مع المجتمع في اطار قيم مسبقة لا يعترف بها .

هنالك اذن اتجاهان فيما يكتبه (أنثار) كلاهما شديد الصلة بالآخر في شكل تصالب : فليس اهتمامه بالذات في تناضلها مع الواقع الا سبيلا الى فهم العلاقات التي تتحكم في سير المجتمع وبالتالي فان محاولة فهمه لهذه العلاقات ما هي الا سبيل آخر يفتحه لنفسه لايجاد علاقة بينه وبين العالم .

غير أن ما يعيب انثار في اعتقادي هو شغفه بالحدث ـ الواقع كمجموعة من الظواهر الخارجية والعلاقات الافقية دون محاولة فهم ذلك كله من الداخل: أي عن طريق تعميق مدلول هذه الظواهر والعلاقات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهكذا كانت (كتاب الهمزة) ـ رغم ما بذل فيها من محاولات للسيطرة على الشكل المفتعل ـ حدثا فيه كثير من الحيوية غير أنه في النهاية لا يعدو أن يكون مجموعة من الحركات والكلمات الحادة التي لا تقول شيئا أكثر من مدلولها العادي الهزيل . الشيء نفسه ـ مع بعض التجاوز ـ يمكن ملاحظته في (الصيد والصخور) :

فالحدث فيها يتراوح بين المقهى والشاطيء . و(العياشي) حزين لانه كان يحب ابنة عمه لكن عمه (الرزين جدا) زوجها من رجل آخر لا نعرف عنه شيئا سوى أنه يمكن أن يسكنها في (عمارة عالية أو فيلا أرضية) الأمر الذي يكشف مركزه المالي في المجتمع من ناحية كما يكشف فقر العم وتطلعاته البورجوازية من ناحية أخرى . هنالك اذن (حكاية) بين (العياشي) وابنة عمه لكننا في الواقع لا ندري طبيعة هذه الحكاية وما هي أبعادها وان كنا نستطيع

أن نكتشف جانبا منها عمل على تعقيدها وهو أن (العياشي) كان فقيرا . وهو يدرك هذا الوضع بكيفية يائسة ولهذا امتنع عن الذهاب الى حفل الزفاف وفضل أن يبقى في المقهى الموجود على رأس المنحدر (محاطا بالدخان) صامتا بعد أن تبلد تحت تأثير (الكيف) والحزن . غير أن (العياشي) رغم فقره لا يملك أن يصبح حاقدا على البنية الاجتماعية التي فرضت عليه أن يظل في (الأسفل) بشكل تعسفي : فلا يزال هنالك في ضميره شيء يسمى الحب يتجاوز حدود العلاقة الذاتية ليتجسد في (تعاطف عملي) مع الآخرين. وهو أيضا لا يملك أن يتناقض مع ذاته لأنه له رأيه المحدد في مجموعة القيم (الخاصة) التي تمتص اهتمام طبقته مثل (الكيف والخمر والنساء والأغنياء) .

الا أن الحزن ـ رغم افتراض فداحته ـ لم يمنع (العياشي) من تحقيق (مشروعه) . بل ان رفضه الشديد للذهاب الى حفل الزفاف من جهة واصراره على الذهاب الى المقهى من جهة أخرى يؤكد أن هذا (المشروع) أن هو الا محاولة لاثبات الذات أولا وللبحث عن حل (روماتيكي) للمعضلة الطبقية بصفة نهائية بعد ذلك . ولهذا فانني أعتقد أن (العياشي) كان واعيا وهو يسوق نفسه الى الموت الذي لم يكن ـ بالمقابل ـ مجانيا أو خاضعا للصدفة . فقبل ذلك بقليل قال له أحد رفاقه محذرا : (انك لن تصل البها ـ بقصد الصخرة ـ الا وجسمك مدمن) لكنه أجابه باصرار : (رغم ذلك لا بد أن أصطاد شيئا) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد اعتمد (أنقار) في (الصيد والصخور) على أسلوب كلاسيكي يجعل من الحدث مرحلتين متصلتين من الداخل وان كانتا في الظاهر منفصلتين بشكل حاد . فالمرحلة الاولى حسب هذا الاسلوب ـ تقوم بمهمة تعريفنا بملابسات الحدث الذي نفترض تبعا لذلك أنه كان مكتملا منذ البداية وأن ما يأتي بعد لا يعتبر الا اضافة (استاتيكية) فحسب . وبالتالي فان المرحلة الثانية تفقد ضرورتها الموضوعية لأنها لا تتكشف في النهاية عن (موقف) جديد ولا تملك أن تضيف (عمقا) آخر الى علاقة (العياشي) بوضعه المتأزم : فقد كانت هذه العلاقة واضحة جدا كما كان رد فعله بصورة أو بأخرى محتملا. ولهذا جاءت المرحلة الثانية من (الصيد والصخور) رغم تفاصيلها الكثيرة هزيلة ولا تعطي للحدث بعدا جديدا يتجاوز الشكلية الكلاسيكية التي تضع لتدفقه حدا .

لقد كانت شخصية (العياشي) ـ من أعلى ـ متناقضة . فلا شك أن وعيه العميق بما يهدد (مشـروعه) كان يشكل الجانب الايجابي من علاقته بالواقع. غير أن هنالك جانبا سلبيا يغلف الموقف كله : فقد كانت أزمة (الشعـور بالدونية الطبقية) في أكثر صورها بساطة مطروحة لدى العياشي قبل أن يصطدم بـها بكيفية باعثة عـلى اليأس بدليل أنه كان يملك (رأيا) في (الاغنياء) . غير أن هذه الازمة لم تستطع ـ مع ذلك ـ أن تحرك (العياشي) الا عندما أصـبح مهددا في ذاته بصورة مباشرة وحادة . هذا جانب ، أما الجـانب الآخـر فيتمثل في هـروبه من لحظة المواجهة التي كانت تبدو بانظر الى شخصيـة (العـم) وتطلعاتها حتمية ولا مفر منهـا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com